

لجنة التأليف والترجمة والنشر

هرمن ودوتله

مختار من مؤلفاته

تأليف

جوله

نقلها عن الألمانية

مكتبة لؤي

لجنة التأليف والترجمة والنشر

هرمن ودروتيه

Hermann und Dorothea

....

للشاعر الكبير

يوهان وفجناح فون جوته

GOETHE

....

نقلها عن الألمانية

محمد عوض محمد

....

ومقدمة الكتاب للأستاذ الدكتور طه حسين

....

طبع بالقاهرة

بمطبعة فاروق ٢٨ شارع المدلينج

١٩٣٣

مقدمة

أتيت إلى منذ أكثر من عشر سنين أن أقدم إلى قراء العربية في الشرق جوته حين قدمت إليهم ترجمة صديقي الزيات لآلام فرتر . وأتيت إلى بعد ذلك بأعوام أن أتحدث إلى قراء اللغة العربية في الشرق عن جوته مرة أخرى حين قدمت إليهم ترجمة صديقي عوض لقصة فاوست . ويتاح لي اليوم أن أتحدث إلى قراء العربية في الشرق مرة ثالثة عن جوته وأنا أقدم إليهم ترجمة صديقي عوض لهذه الآية الخالدة من آيات جوته وهي قصة «هرمن ودروتيه» ، وأنا أكتب هذا الفصل وفي نفسي عاطفتان قويتان تبعثان فيها السرور والغبطة وتملأ بها بالرضى والابتهاج : احداهما عاطفة الأثر التي يمتلئها الناس عادة ويذمها فلاسفة الأخلاق دائماً والتي لا تخرج من أن أقبلها الآن وأستعذب الشعور بها لحظات قصارا لأنني إنسان أجده ما يحبه الناس من هذه العواطف التي تنشأ عن الضعف فتملأ النفس غرورا وتبعث فيها الحاجة إلى الفخر . ومالي لا أستعذب هذا الضعف ولا أستلذ الحاجة إلى الفخر . وليس من الأشياء اليسيرة ولا القليلة الخطر ، أن يختصك الله بهذه النعمة ،

نعمة التعريف بجوته وتقديمه وتقديم شيء من آثاره الخالدة الى أجيال الشرق العربي على اختلافها .

لقد كنت ومازلت أشعر وأنا أقدم هذا الشاعر الفيلسوف العظيم الى أهل الشرق انى أستقبله فى دارى وأقدم اليه من ألوان التضييف والاكرام ما أقدر عليه وما هو أهل لأضعافه . وأى شرف أحسن فى النفس وقعاً وأدعى الى الفخر والكبرياء من استقبال هذا الرجل العظيم وتقديمه الى الشرقيين بل تقديم الشرقيين اليه ولا سيما بعد أن مضت الأعوام بشخصيته الفردية والوطنية وجعلته رجلاً انسانياً عالمياً فوق الفرد وفوق الأمة الألمانية التى أنجبتة وفوق العصر الذى عاش فيه بل فوق العصور جميعاً . ويزيد هذه العاطفة فى نفسى قوة وبها استثارنا انى لم أكد أقدم جوته الى الشرقيين حتى أحبوه وأقبلوا عليه يقرأونه ويدرسونه ويلتمسون عنده غذاء العقل والعاطفة والشعور : فلم تكذب تظهر آلام فرتر وتذيع فى الناس حتى أساغوها واستعذبوها وطلبوا المزيد من آثار هذا الرجل العظيم . فظهرت لهم قصة فاوست فاذا هم يجدون فيها مزاجاً قيماً بديعاً من الأدب الرائع والفن الرفيع والفلسفة العليا ، واذا هم يقرأون ويدرسون ويستزيدون واذا صديقى عوض يلى هذا الدعاء ويستجيب لهذا النداء فيترجم لهم هذه الآية التى أقدمها الى القراء اليوم وهى قصة « هرمن ودروتيه » .

هذه احدى العاطفتين اللتين أشعر بهما وأنا أكتب هذا الفصل . فأما العاطفة الأخرى فقد تحدثت عنها وأنا اتحدث عن العاطفة الأولى . ذلك انى أشعر بشيء من الايثار وحب الخير للناس جميعاً وأشعر بشيء من الغبطة حين أراهم يظفرون بهذا الخير الممتاز الذى يهديه اليهم الأدباء والعلماء من حين الى حين فيرفون عليهم ويريحونهم ساعات أو أياماً من هذا العناء الطويل الثقيل الجاف الحشن بعناء الحياة .

ذلك انى لم أقرأ كتاباً يعجبنى ولم أستمتع بأثر من الآثار الأدبية الرائعة إلا ازددت إعجاباً بهذا التشبيه الشائع الذى يصور الحياة كأنها صحراء عريضة مقفرة ، محرقة الشمس غليظة الأرض ، مضطربة الريح كثيرة الرمال ، ندفع فيها دفعا لا قبل لنا بمقاومته فنلقى فيها الأهوال والخطوب ولكن الأدب والفن والفلسفة تتيح لنا من حين الى حين أن نستريح من هذا الجهد المضنى حين نلقى فى بعض الطريق وسط هذه الصحراء المهلكة واحة نضرة ، فيها الشجر والزهر ، والروض والماء العذب ، والنسيم الحلو العليل .

فهل يستطيع الناس أن يشكروا للشعراء والكتاب والفنيين والفلاسفة ما يسدون اليهم من نعمة وما يقدمون اليهم من معروف حين ينشئون لهم هذه الوحات التى يطمثون فيها ويمجدون فيها

نشاطهم ويزدقون من نعميها وبهجتها ولذتها ما يعينهم على المضى فى سفرهم الطويل الشاق؛ وهل يستطيع الشرقيون أن يشكروا لهؤلاء الأدباء الذين يترجمون لهم آيات الأدب والفن والفلسفة فيفتحون لهم من النعمة ما أتيح للأمم التى نبغ فيها عظماء الرجال وينسون أنفسهم ويمحون شخصياتهم ويقنعون بمكان المترجم . الذى ليس هو بالقارىء المستريح ولا المنتج النابغة ، ولكنه صلة بين الرجلين ؛ لاحظ له من راحة الأول ولاحظ له من مجد الثانى وإنما هو خادم مخلص مؤثر أمين يرفع القارىء الى حيث يذوق جمال الفن وجلاله؛ ويشق لآثار النابهين من الأدباء والفلاسفة طرقاً جديدة الى عقول الناس وقلوبهم . ويتيح لهم بسط سلطانهم الخير على مختلف البيئات والأجيال . هذه منزلة المترجم بين المنتجين والمستهلكين فى الفن والأدب والفلسفة كما يقول أصحاب الاقتصاد : يراها الناس يسيرة وأراها عظيمة جليلة الخطر وحسبك انها هى التى تحقق الصلة القوية بين الأجيال والشعوب فتزيل ما بينهم من الفروق ، وتدنى بعضهم من بعض ، وتقريبهم من هذا المثل الأعلى الذى يقوم على رقى العقل والخلق والشعور وحب الخير والاخلاص فى طلب السلام . فلنعرف لهم ذلك على أقل تقدير اذا لم نستطع أن نجزيهم بخير منه على ما يسدون الى الافراد والجماعات من مآثرة وما يهدون اليهم من جميل .

فرغ جوته في أواسط سنة ١٧٩٦ من قصته البديعة «ولهم ميستر» وأرسل آخر جزء من أجزاءها الى صديقه شيلر وأعلن اليه في كتاب أرسله مع هذا الجزء انه يريد أن يستريح من العناء الذي لقيه في وضع هذه القصة بوضع قصة أخرى غرامية ابطالها من أهل المدن . وكان كل شيء حول جوته يدفعه الى وضع هذه القصة والى وضعها على هذا النحو الذي سيراه القراء حين يقرأون هذه الترجمة التي أقدمها اليهم .

كانت الثورة الفرنسية قد غيرت نظام الطبقات التي تتألف منها الجماعة فزال الفروق السياسية والاجتماعية وسوت بين الناس في الحقوق والواجبات ورفعت من شأن الطبقات الوسطى من أهل المدن لأن هذه الطبقات كانت راقية مهيأة للنهوض باعباء الحياة العامة واحتمال تبعاتها والاستمتاع بما فيها من منفعة وقوة وسلطان .

ازالت الثورة الفرنسية سلطان الاشراف ولكنها لم تنقله الى الطبقات الدنيا لأن هذه الطبقات لم تكن مهيأة للنهوض بهفا كتفت بنقله الى الطبقات الوسطى ؛ وتركت للاشتراكية التمهيد لسيادة العمال ومن اليهم فكان الشعور في أوروبا كلها وفي فرنسا وجاراتها خاصة قويا لأن عصر السيادة والعزة للطبقات الوسطى قد أظلم

الانسانية فلا غرابة في أن تنبعث الحياة القوية الخصبية في نفوس هذه الطبقات وفي أن تضطر الفلاسفة والأدباء إلى العناية بها والتفكير فيها ولا غرابة في أن يفكر جوته في أن يتخذ منها ابطلا لقصصه وآثاره المختلفة .

وكان الشاعر الألماني فوس قد وضع قصة شعرية وصف فيها الحب ونشأته بين المحبين وتداني هذين المحبين حتى تكون الخطبة ثم يكون الزواج وما يحيط بهذا كله من لذة وبهجة ومن ألم وحزن ثم من رضى وإبتهاج . وكان عنوان هذه القصة « لوزير » وكان الألمانيون قد قننوا بها حين ظهرت سنة ١٧٨٤ . وكان جوت نفسه من أشد الناس حباً لها وافتاناً بها . وأنت تعلم أن من أنحص خصال الشاعر وأقواها وأشدّها تأثيراً في حياته الفنية أنه لا يكاد يعجب بأثر من الآثار الأدبية حتى يود لو استطاع أن يحاكيه وينشئ مثله . وكان جوت كما تعرف مشغولاً بالأدب اليوناني وبالقصص والتمثيل منه خاصة ، وكان شديد الحرص على أن يحاكي هذا الأدب ويحتذيه وينشئ مثله . وكان لا يتهيب شعراء التمثيل اليونانيين ولكنه كان يكبر هوميروس ويخافه ولا يكاد يحدث نفسه بالطمع في محاكاته أو مجاراته ، ولكن عالماً ألمانياً هو وولف كان قد نهض في هذا العصر إلى هذا المعبد الذي كان يقيم فيه صنم هوميروس ففتحه ودخله وزار حجراته وغرفاته ثم خرج

فأعلن إلى الناس أنه لم يجد صنماً واحداً وإنما وجد أصناماً ، وأن
هو ميروس ليس كما كان الناس يعتقدون ، هذا الشاعر الإلهي العظيم
الذي لا يجارى ولا يبارى . وإنما هو في أكبر الظن شاعر نابغة
قد جراه من غير شك كثير من الشعراء فبرعوا كما برع ونبغوا
كما نبغ ونسبت آثارهم الخالدة إليه دونهم ، فرعم الناس أنه وحده
صاحب « الإلياذة » و « الاودسيا » ، على حين أن نصيبه من هاتين
الآيتين يسير .

فلم يكد جوته يقرأ ما كتبه وولف حتى أحس الشجاعة على
أن يجارى شعراء « الإلياذة » و « الاودسيا » كما جارى شعراء
التمثيل ، وكتب الى وولف يذكر له ميله الى أن يكون أحد
هؤلاء الشعراء الهوميريين .

وكانت الأنباء قد استفاضت بفتنة دينية في مدينة سلزبورج
انتهت بطرد البروتستنتيين منها ، فهاجر هؤلاء في حالة سيئة ،
ومروا في هجرتهم هذه باحدى المدن فخرج الناس ينظرون
اليهم ، وكان بين هؤلاء الناس شاب رأى بين المهاجرين فتاة راقته
فأحبها ولكنه لم يعلن اليها الحب ، وإنما طلب اليها أن تتبعه على
أن تكون خادماً لأسرته قبلت . فلما انتهت معه الى البيت أعلنت
الخطبة وقبلتها الفتاة ، وقدمت الى الفتى شيئاً من النقد كانت تحمله
أهدته اليه مهرأ لها .

فلما انتهت هذه القصة الى جوته في هذه الظروف التي كانت تحيط به
والتي أجمعتها لك آنفاً كان كل شيء قد تم ، ليستطيع شاعرنا العظيم
أن يضع هذه القصة الشعرية التي يستريح بها من العناء الذي لقيه
في تأليف قصة « وللم ميستر » .

ليس ما يمنعه من محاكاة هوميروس فقد حاكاه الشعراء من قبله
وليس ما يمنعه من أن يجارى « فوس » ويضع قصة كقصة « لويز » ،
وليس ما يمنعه من أن يلائم بين هذين الميلين فيحاكي في قصة واحدة
الشاعر اليوناني القديم والشاعر الألماني الحديث .

أما محاكاة الشاعر الألماني فيسيرة سهلة لامشقة فيها ولا عناء
وليس من شك في أن الفوز فيها يحقق لعيقرية جوته . ولكن
الخطر كل الخطر والعسر كل العسر في محاكاة هوميروس وللشعر
الحماسي كما نجده في الالياذة والاولدسيا شروط وأصول منها ما يتصل
بموضوعه ومنها ما يتصل بشكله وصورته ، وليس من اليسير على
جوته أن يرمى هذه الأصول ويحقق هذه الشروط ولئن فعل
فلن يكون من اليسير أن يذوقه الناس ويعجبوا به . فالشعر الحماسي
لم يقبل إلى أيام جوته أن يكون له موضوع غير الحوادث الخارقة
العالية التي تتصل بالأبطال والآلهة وكل محاولة للنزول بهذا الشعر
عن هذه المنزلة قد لقيت الاخفاق . والشعر الحماسي في حاجة إلى
وزن خاص هو هنا الوزن السداسي الذي لم يألفه الألمان ولم

تستقم له اللغة الألمانية . والشعر الحماسي يحتاج في ألفاظه وأساليبه إلى شيء عظيم من الفخامة والضخامة والجلال الذي يهر العقل والخيال ويملاً السمع والقلب معا . فكيف السبيل إلى تحقيق هذا كله وكيف السبيل بعد تحقيقه إلى حمل الناس على قبوله وإساغته . هذه هي المعضلة التي فرضت نفسها على جوته حين فكر في إنشاء قصته الغرامية . ولكن جوته ليس رجلاً مثلك ومثلي وإنما هو رجل نابغة فذ ، تستطيع العضلات أن تفرض نفسها عليه ويستطيع هو أن يجد لها الحل وأن يفرضه عليها . وكذلك فعل ومحدثنا شيلر في بعض كتبه إلى صديق له أنه هو وامرأته لم يكونا يدريان بأى الأمرين يعجبان من جوته حين يضع هذه القصة فيطلعهما على خمسين ومئة بيت في اليوم أيعجبان بهذا الشعر أم يعجبان بسهولة تأتية للشاعر وسرعة الشاعر في انشائه . ويقارن شيلر في شيء من الإعجاب والحزن بين نفسه وبين جوته فينبأ هو يجهد نفسه ويكلفها ألوان العناء ليخرج للناس أدباً لا يكاد يرضاه إذا جوته يهز شجرة نبوغه فيساقط عليه منها ألد الثمار طعماً وأكبرها حجماً . وقد كان شيلر موفقاً في هذه المقارنة موفقاً في إعجابه ببراعة جوته وخصب قريحته فقد انتقاد له الشعر ووضع هذه القصة في أقصر وقت وتكلف فيها أقل عناء وجاءت على هذه السرعة والسهولة من أحسن الآيات التي أخرجها للناس .

يحتاج الشعر الحماسي الى موضوع له خطر وجلال وقد وفق جوته الى هذا الموضوع وهو الثورة الفرنسية . وأين تقع حرب طروادة من الثورة الفرنسية ! ولكن جوته لم يتخذ الثورة أصلاً للقصة وإنما اتخذها إطاراً لها ورأى أن هذا يكفي لارضاء إلهة الشعر القصصى . فاما أبطال هذه القصة . فقد اختارهم جوته بين هذه الطبقة الوسطى التي ظهرت بالسيادة الفعلية في فرنسا والتي تطمح الى السيادة في ألمانيا . وقد أحس جوته من إلهة الشعر القصصى نفوراً من هؤلاء الأبطال العاديين ان صح هذا التعبير ولكنه استطاع أن يزيل هذا النفور وأن يطلق لسان الشعر القصصى بمآثر هؤلاء الأبطال .

هل أنا في حاجة الى أن ألخص لك هذه القصة التي هي بين يديك؟ لا بد من ذلك في أسطر قليلة لترى موضع البراعة في قصة جوته : قوم من الألمان المجاورين لفرنسا قد رأوا الثورة ففتنوا بها وخلبتهم . مبادئها العالية ولكنهم لم يلبثوا ان رأوا ما أثار من الحروب واذا هم تطردهم من بلادهم واذا هم يعبرون الرين مشردين . وهم في طريقهم يَمرون بمدينة ألمانية صغيرة فتبتدىء القصة في هذا المكان . تبتدىء فيه وتنتهى فيه في أقل من يوم . ذلك ان أهل المدينة قد هرعوا الى الطريق العامة ليروا هؤلاء المشردين ول يحملوا اليهم ما يستطيعون تقديمه من المؤونة . وكان بين أهل المدينة قى هو

هرمن أبوه صاحب فندق وقد خرج يحمل الى هؤلاء المشردين
ماجمعت له أمه من طعام وشراب وكسوة فرأى بين هؤلاء الناس
فتاة بارعة الجمال رزينة رصينة لم يكدرها و يتحدث اليها حتى
شغفت قلبه فعاد الى أسرته وقد جن بها جنوناً .

وكان أبوه وأمه شديدي الرغبة في تزويجه ، وفي تزويجه من فتاة
غنية لها ثروة ضخمة ومكان رفيع في المدينة . وكان أبوه شديد
الحرص على هذا الزواج لأن فيه الثروة والرفعة معاً ولكن الفتى
لم يظهر ميلا الى هذا الزواج بل أظهر منه نفوراً وعنه أزورارا
فسخط أبوه واشتد سخطه وانصرف الفتى محزوناً كثيراً ثم تبعه
أمه باحثة عنه حتى تظفر به في ظل شجرة فاذا هو يائس قد اعتزم
أن يقضى مابقى من أيامه في الحرب دفاعاً عن مدينته ان تعرضت للخطر .
وما تزال أمه به حتى تعلم عليه واذا هو مشغوف بهذه المهاجرة
يريد أن يتخذها له زوجاً وما أسرع ما تطيب أمه نفسها بهذه الفكرة
وما أشد ما تجتهد باقناع الوالد بها ولكن الوالد مغضب سى الظن
لا يطمئن الى هذا الرأي الا كارهاً وعلى ان يذهب صديقان
أحدهما صيدلى والآخر قسيس ليعلما علم الفتاة . فيذهبان ويراقبهما
الفتى وقد رأيا الفتاة فأعجبتهما ورضياها للفتى زوجاً وعادا بهذا النبأ
الى الاسرة وتخلف الشاب ليعلن حبه الى الفتاة . ولكنه لم يجرؤ على
ذلك لأن الفتاة قد ملأت نفسه هبة وروعة ولأنه رأى في أن يصيغها

خاتم الخطبة ولكنه مع ذلك يعرض عليها الخدمة في بيته فتقبل ولعلها أحست حب الفتى ولعلها طمعت فيما هو خير من الخدمة ويعودان مشيا الى البيت وقد انقضى النهار وأقبل المساء ثم تبعته العاصفة . ولا يكاد الفتى يدخل مع صاحبه على أبيه وأمه وصديقه حتى يزداد الأمر تعقيداً . الفتى لم يبيء صاحبه بحبه وإنما عرض عليها الخدمة وأبوه لا يعلم إلا ان هذه الفتاة ستكون زوجاً لابنه فهو يسألها أأعجبك الفتى ! فيسوء ظن الفتاة بهذا السؤال ويكون حوار مؤلم تعزم معه الفتاة على أن تعود أدراجها ولكن كل شيء ينجلي ويعلن الحب وتكون الخطبة . هذا تلخيص أقل ما يوصف به انه سخيف لا يدل على شيء مما في القصة من جمال وبراعة ولكني قد قدمت هذا السخيف لتستكشف أنت كيف يستطيع شاعر نابغة كجوته ان يخرج من قصة سيرة كهذه آية فنية كهذا الكتاب الذي أضعه بين يديك ، ستجد هذه البراعة في تصوير أشخاص القصة بما لهم من حياة وشعور وذكاء وخلق . مما تجد عند الامان ومن صفات أخرى تجدها في الناس جميعا . بما تجرى به ألسنتهم من حديث ساذج ولكنه خصب كأخصب ما يكون الحديث . فيه تصوير لحياة الطبقات الوسطى في المدن وفيه تجلية لهذه الحكمة الرائعة التي تسيطر على حياة الناس مهما تختلف الأجيال والأزمان . نعم وستجد هذه البراعة في هذا التصوير الخفيف الأخاذ للطبيعة الحية في المدينة ومن حولها في غير تكلف ولا بحث ظاهر ولا استقصاء

للا لفاظ الخلافة . نعم وستجد هذه البراعة بنوع خاص ان كنت قد قرأت الايلاذة والأودساحين تحس التشابه بين هذين النوعين من الشعر في الوزن وأولاوليس هذا بالشئ الذى يعنيننا وفي الأسلوب والسذاجة بعد ذلك ، وهو الشئ الذى يجب أن نقف عنده ونلتفت اليه .

أبطال جوته كأبطال هوميروس فيهم سذاجة حلوة وفيهم دعة كلها عدوية وفيهم على ذلك شدة فيما لا بد من الشدة فيه . يتحدث بعضهم الى بعض فيمزجون أغراض الحياة اليومية بهذه الحكمة الشعبية الخالدة ؛ ويصورون لك أنفسهم في هذا الحديث . وهم اذا تحدثوا أحيوا من حولك كل شئ وأجروا الحركة في كل شئ . وأشركوك معهم ومع الأشياء في هذه الحركة وفي هذه الحياة . وهم لا يحبون ما نألفه نحن من الإيجاز في الحديث والأعراض عما لاحتاجة اليه ولكنهم يلبون بكل شئ ويفصلون كل شئ ويكشفون لك عن أشياء قيمة في هذا التفصيل الذى كنت ترى أن لاحتاجة اليه . وفق جوته من غير شك كل التوفيق ، لا أقول في محاكاة هوميروس وأصحابه ، بل أقول في الملاءمة بين فن هوميروس وأصحابه ، وبين الحياة الحديثة آخر القرن الثامن عشر .

أما في ألمانيا فقد فاز جوته بأعجاب عظيم حين أذاع هذه القصة . فتن بها الشعب ، ورضى عنها أكثر النقاد ، وتكر لها بعض الحاسدين . ولكنها لم تبلغ ثلاث سنين حتى تجاوزت ألمانيا واللغة

الألمانية . وإذا هي تترجم الى الفرنسية والانجليزية والاطالية .
 وتمضى بعد ذلك أعوام ، وإذا هي تترجم الى اللاتينية . ويرى جوته
 هذه التراجم وينظر فيها ويرى هذا الفوز ويقول فى آخر حياته أن هذه
 القصة قد بحثت فى نفسه من الرضى ما لم تبحثه قصة أخرى من قصصه المختلفة .
 فإذا اتصف القرن التاسع عشر كانت هذه القصة موضوع رسالة
 للدكتوراه فى السوربون فإذا تقدم هذا القرن كانت هذه القصة موضوع
 البحث الواسع العميق فى البيئات العلمية والأدبية المختلفة فى أوروبا .
 وينتهى القرن التاسع عشر ويتقدم القرن الذى نحن فيه ويحتفل العالم
 بمرور مائة عام على وفاة جوته ونفكر نحن فى هذا الاحتفال ثم يحال
 بيننا وبينه فتفق أنا وصديقى عوض على أن نحتفل بهذا العيد كما نستطيع .
 وأى أسلوب فى الاحتفال بجوته أحسن من أن يترجم عوض هذه
 الآية من آياته ومن أن أنوب عنه أنا فى تقديمها الى القراء . وقد اشترط
 على ألا أذكره بخير وأنا عند شرطه . ولكنه لن يستطيع أن يمنعنى
 من أن أعلن راضياً مبتهجاً أنه قد استطاع فى ترجمته العربية أن
 ينقل إلينا نقلاً صحيحاً ما قصد إليه جوته فى قصته هذه من السذاجة
 العذبة الخصبه معاً . وإذا فلغتنا العربية قادرة على أن تسع الفنون الأدبية
 لجوته إذا وجد مترجمون كموض . وإذا فقد أستطيع بعد أن نبت عن
 عوض فى تقديم هذا الكتاب الى القراء أن أنوب عن القراء فأهدى الى
 صديقى وصديقهم أجمل التهئة وأصدق الشكر

طه حسين

هرمن ودروتيه

قصيدة (ايلجيا) ^(١)

....

إذن لقد كان جُرمًا أنْ أثارُ پرورتيوس ^(٢)
في نفسي حماساً ؛ وأن قد اتخذت مارسِيال —

(١) لهذه القصيدة تاريخ لابد من ذكره : ذلك أن جوته وشيلر كانا يكتبان قطعاً شعرية قصيرة اسمها إكسِنيا Xenie ينتقدان بها معاصريهم ويستخران منهم . وقد رد هؤلاء النقد بمثله ، وطعنوا في كثير من مؤلفات جوته . وبهذه القصيدة (وهي من نوع خاص اسمه ايلجيا ، يرد جوته على الذين انتقدوه ولاموه على تشبهه بكتاب اليونان واللاتين . ولم تكن لهذه القصيدة أولاً علاقة بكتاب هرمن ودروتيه ، لولا أنه في آخرها يعلن للناس كتابه الجديد ، والمنحى الذي يريد أن ينحوه فيه : أن يقص قصة ألمانية عصرية على نمط قديم : على طراز شعر هوميروس . ولم تلحق هذه القصيدة بكتاب هرمن ودروتيه الا في سنة ١٨٢١ أى بعد ظهور الكتاب بنحو ٢٥ سنة . والمتكلم في هذه القصيدة هو بالطبع جوته نفسه .

(٢) پرورتيوس Propertius أكبر شعراء اللاتين الذين نظموا القصائد التي من نوع ايلجيا . Elegia وليس معناها هنا مرثية . بل نوع من الشعر من وزن وشكل خاص . وقد اقتدى جوته بهذا الشاعر في كتابة القصائد الرومانية . التي ألفها بعد عودته من روما — أما مارسِيال Martial فهو من أشهر شعراء اللاتين في النوع المسمى ايجرام Epigram أى حكمة أو مثل . وتفيد أحياناً معنى مقطوعة

ذلك الوقح الجريء - رفيقاً وصديقاً ...
أجل كان جرماً أن صاحبت القدماء
ولم أنبذهم في مدرستهم ، ورأى ظهيرياً .
وأن قد رافقوني - في الحياة -
إلى لاتيوم راغبين طائعين (١) ...

أمن الجرم أنى جشمت النفس كل عنا
في استطلاع ما بالطبيعة وما بالفنون من حسن وإبداع؟
وأن لست بمن تخدعهم الأسماء أو تقيدهم الأوضاع؟
وهل أجزمت إذ صممت لدوافع الحياة المُلحّة ،
فلم تبدّل من طبعي ولا من شيمتي :
واذ هتكت برقع الرياء الشائن باحتقار وازدراء ؟

فياربة الفن (٢) ! ان هذه الصفات

شعرية من غير نظر الى الموضوع . وقد اتخذ جوته مثالا في كتابه حكم البندقيّة
Venetianische Epigramme . وقد هوجم جوته من أجل هاتين المنظومتين
والى هذا يشير هنا .

(١) إشارة الى رحلته الى إيطاليا ، حيث كانت كتب القدماء مرشده الأول .

(٢) يخاطب إلهة الفن «Muse» على طريقة الشعراء في الشعر الحماسي .

هي غرسك الذي غرسته في نفسي بجد ونشاط .
 قد جعلها الغوغاء وصمات وهنات ،
 لأنهم يحسبوني كأحدهم .
 بل إن الأختيار أنفسهم — على ما بهم من صفاء ووفاء —
 يريدون مني أن أسلك غير ستي .
 لكنني ، أيتها الربة ! لن أأتمر إلا بأمرك .
 فأنت وحدك التي مازلت تبعثين في صدري
 قوة الشباب ، إذا ما أخلق جليابه .
 وقد عاهدتني على هذا مدى الحياة . . .
 فيا أيتها الربة ! لتشملي اليوم عنايتك المقدسة
 أضعافاً مضاعفة . فقد أصبح الرأس
 وما تزينه الذوائب الجميلة كما عهدناه من قبل .
 فما أحوجه اليوم إلى إكليل
 يخدع به الناس ويخدع به نفسه !
 وقد يماً كان قيصر (١) نفسه
 يلبس الاكليل مُكرها لامتخارا .

(١) قيصر : هو يوليوس قيصر ، وقد سمح له بلبس الاكليل دائماً ليخفي به صلته .

فان كان لى عندك ، أيتها الربة !
 عُصْنٌ من الغار . فندريه اليوم على شجرته .
 يزدد خُضْرَةً ونُضْرَةً ،
 عسى أن يحين يومٌ فأصير به جديرا .
 عمّا قليل يأتى المشيب ،
 فينثر زنبقه الفضى خلال الذوائب السوداء .
 فلا تبخلى على الآن باكليل من الورد الجنى ،
 يتوج سعادتى المنزلية (١) . .
 وإنى لسعيد إذ أرى الزوجة تشعل النار
 فى موقد نظيف ، من أجل طهى الطعام .
 واذا أرى الصبي يلقي بالأغصان فيها ،
 وهو يلهو ويلعب . . .

(١) هنا يتكلم جوته بصراحة عن سعادته العائلية . وكان هنا عقب اتصاله
 بكرستيانا فولبيوس وقد ولدت له ابنة أغسطس وهو المذكور بعد . ويدعوها جوته
 فى البيت التالى زوجه . . ومن الكتاب من يرى أن كتاب هرمن ودروتيه عبارة
 عن نشيد جميل فى وصف السعادة المنزلية والحياة الزوجية . وفى هذه السطور يقول
 جوته — متواضعا — انه لم يبلغ فى الشعر بعد منزلة يستحق فيها إكليل النار ،
 ولكنه بلغ فى سعادته المنزلية درجة عليا يستحق فيها إكليل الورد .

فاملئ ايتها الربة أقداحنا بالمدمام !
ويا أصدقائي الذين يعشقون السمّ .
والذين هم على شاكلي ومذهبي !
أهلاً بكم إن لكم عندي أيضاً أكاليل !
فتعالوا نشرب أولاً نخب ذلك الرجل الجريء ،
الذي خلّصنا أخيراً من هوميروس (١) :
خلصنا من ذلك الاسم العظيم الهائل ،
لكي يسلك بنا طريقاً أجلاً وأعظم .
ومن ذا الذي يجزؤ على التطلع لمرتبة الآلهة ؟
بل إلى مرتبة إله واحد ؟
يدأني ، رغم هذا ، أرى حسناً — وإن جئت أخيراً —
أن أكون أحد أولئك الهومريين ..
فيا أخلاي ! أنصتوا إلى هذا القريض الجديد :

(١) يشير إلى الكاتب الألاتي Wolf وهو من معاصري جوته وكان
بيهما معرفة ومودة . وهو أول من قال بأن القصائد المنسوبة إلى هوميروس (الآلياذة
والاوذيسية) ليست من تأليف رجل واحد ، بل من وضع كثيرين أطلق عليهم اسم
الهومريين (Homeriden) . وهم الذين يشير إليهم جوته هنا باسم المقلد ، ويود
لو أتبع له أن يقدم .

وأترعوا الأقداح بالراح :
لعلَّ في الصهباءِ والحبِّ والصَّداقةِ
ما يحملكم على التسامح والاعضاء ..
إني سأسوق أمامكم صوراً لحياة الألمان أنفسهم
في دار تجمع بين البساطة والهدوء .
حيث الإنسان يتعلم من الطبيعة
كيف يغدو إنساناً كاملاً .

وليكن رفيقنا اليومَ روحُ ذلك الشاعر ،
الذي سحرنا بيبانه ، إذ يقصُّ علينا قصة (لوزا)
وكيف عقد لها بسرعة على الفتى الجدير بها (١)
وكذلك سأسوق أمام أعينكم
صوراً أليمةً لذلِّكم العهدِ الحزين (٢) .
وأريكم كيف يخرج الجنس الباسل الطاهر
وقد عقد له أخيراً لواء النصر ..
ولئن وفقت لاستدرار الدمع من مآقيكم ؛

(١) قصة لوزا للشاعر الألماني Voss تشبه الى حد ما قصة هرمن ودوتييه .
ومنها اقتبس جوته موضوع هذا الكتاب .
(٢) أى عهد الثورة الفرنسية .

ولئن أخذتكم نشوة الطرب لما أنشدته الآن
فتعالوا عانقوني عناق المودة الخالصة .
وأسندوا صدري إلى صدوركم .
إن حديثنا اليوم حديثٌ عقل وحكمة :
فلقد ألقى علينا هذا القرن (١) في نهايته
دروس الحكمة الغالية ،

بما أجهدنا به القضاء ، وابتلانا به القدر .
إن في قلبكم من السرور والطرب
ما يعلمكم القناعة والرضى بالقليل .
فلننظر ، إذن ، إلى تللكم الأيام الماضية :
نظرة طمأنينة وارتياح .

ولئن عشنا كثيراً بمعرفة الرجال والشعوب
فلتعلم ، أيضاً ، ما انطوت عليه الجوانح .
وما استقرت في أعماق النفوس .
يكن لنا في هذا من السرور أوفى نصيب .

(١) أى القرن الثامن عشر . وفي نهايته كتب هذا الكتاب . والدروس المشار إليها هي الثورة الفرنسية في كل أطوارها .

النشيد الاول

كاليويا^(١) KALLIOPE

(الهة الشعر المحامى)

....

صروف القضاء وعطف القلوب

« لعمري ما رأيت هذا الميدان ولا هذه الطرق خلاء قفرا
كما أراها اليوم . وكأني بها قد كُنِست كنسا ، أو بسط عليها
الموت جناحيه . فلا أكاد أبصر من أهل المدينة جميعاً
خمسين رجلا .

(١) الكتاب مكون من تسعة أناشيد ، وكل نشيد عنوانه اسم من أسماء آلهات
الفنون Muse كما فعل هردوت : كأننا المتكلم في كل نشيد هو الموسى نفسها .
ولهة النشيد الاول هي إلهة الشعر المحامى : أو شعر الملاحم Epos . لان الكتاب
هو من هذا الطراز . ولكل نشيد عنوان ثان يدل على موضوعه وهو هنا صروف
القضاء وعطف القلوب . لان القضاء نزل بكثير من المارين اللاجئين في عهد
الثورة الفرنسية . فهاجروا الى نهر الرين فغطت عليهم قلوب الناس كما سئرى في النشيد..

« إن حب الاستطلاع لنذو سلطان على النفوس ! فلقد هُرِعَ الناس وتدافعوا من كل صَوْب ، مسارعين الى رؤية ذلك القطار الحزين من اللاجئين التعساء .

« إن بيننا وبين ذلك الجسر الذى سيسلكونه سير ساعة من الزمان ، ولا بد بعد ذلك من الانحدار والمشى وسط الغبار وفى حرّ الظهيرة ... ولن ترانى مُخَلِّياً مكانى ، من أجل رؤية ذلك الشقاء ، الذى ترزح تحت عبئه تلك الجماعات الهاربة؛ وليس يدها سوى القليل مما استطاعت إنقاذه حين أكرهت على ترك أوطانها الجميلة وراء الرين والالتجاء الى ديارنا (١) ، حيث يطوفون بأرجاء هذا الوادى الخصب ، وبين منعطفات نهرنا الفياض .

« ولعمري لقد أحسنت صنعاً أيتها الزوجة ، إذ هزنتك الأريحية ، فبعثت ابننا لكى يحمل الى هؤلاء البائسين بعض

(١) هذه الجماهير جاءت من الناحية الغربية لنهر الرين : أى من البلاد الألمانية المتاخمة لحدودفرنسا مثل الألزاس .. وهؤلاء الألمان حين أرادوا الفرار مما سببه لهم الاحتلال الفرنسى من الشقاء اضطروا لان يجتازوا نهر الرين الى الناحية الشرقية (الناحية اليمنى) حيث المدينة الصغيرة التى تدور فيها حوادث هذا الكتاب .

الملابس القديمة وشيئاً من الطعام والشراب . فان العطاء
فرض على ذوى اليسار .

« وإنى لشديد الإعجاب بفتانا إذ أراه يسوق المركبة
بمهارة فائقة . وقد أخضع الجياد ، يسيرها كيفما شاء .
وتعجبني مركبتنا الجديدة ، فهي حقيقةً على شئٍ كثير من
الحسن . ومن السهل أن يجلس بها أربعة أشخاص دون مشقة
أو عناء . عدا السائق الذى يجلس على مقعده الخاص .
وهو اليوم يسوقها منفرداً لم يصاحبه أحد . . . رأيت
كيف دار بها حول ناصية الطريق بسهولة تامة ؟ »

هكذا كان صاحب فندق « الأسد الذهبى » يتحدث
الى زوجه وهو جالس فى مدخل داره مستريحاً مطمئناً .
فقالت زوجه ، وقد أوتيت شيئاً كثيراً من العقل
والذكاء : « إنى أيها الوالد (١) لست بالتي تهبُ ما عندها
من قديم الثياب والأقشة عن طيب خاطر ؛ فانها أشياء تقي

(١) عبارة مألوقة عند الاوربيين فى خطاب المرأة لزوجها متى أصبح والداً .

وكذلك الاب ينادى زوجه يا أم !

بشتى الأغراض والحاجات . وليس من السهل شراؤها بالمال حين نغدو فى حاجة إليها . لكننى اليوم لم أتردد فى بذل مُقتنيات حسنة من الألبسة والأغطية . فلقد سمعت أن فيهم أطفالاً صغاراً وشيوخاً فانيين يمشون عراة أو شبه عراة . « فهل أنت صافحٌ عني إذ لم أحجم عن الاغارة حتى على خزانة ثيابك أنت . وما أخذته منها جبة نومك (١) ذات الازهار البديعة المطرزة بالحرير الهندى على قماش من القطن الثمين ، ومُبطنة بأحسن الصوف وأعلاه . ولم أتردد فى بذلها لهؤلاء البائسين . لأنها كما تعلم قد غدت قديمة مهلهلة ومن طراز عتيق . »

فتبسم صاحب الفندق ، وقال : « إني ليسوءنى فقد هذه الجبة القطنية القديمة . فانها بضاعة شرقية أصيلة ، ولا يتسنى وجود مثلها اليوم . على أنى الآن لم أعد أرتديها . فقد أصبحنا فى زمان يُراد منا فيه أن نلبس دائماً العباءة والكساء البولونى وأن نحتذى النعال الطويلة دون القصيرة . وحرّم علينا حتى لبس القلائس الخفيفة . »

فقال زوجته : « ها قد عاد أدراجه بعض أولئك الذين

(٢) ترجمة لكلمة Schlafrock وهى المعروفة بالروب دى شامير .

ذهبوا الرؤية الوافدين . فلعل المشهد قد انتهى . أنظر إلى أحذيتهم . كيف تراكم عليها التراب . وإلى وجوههم كيف تلتهب لما عانوه في هذا الحر الشديد . وهامهم أولاء يتناول كل منهم مبديله ليمسح به عرقه المتصبب ، ولو أنى مكانهم لما أنهكت قواى ، بعد ذلك المشهد ، بكل هذا العدو والاسراع . ولعمري إنهم سيشبعوننا اليوم قصصا وأحاديث .

فسكت الوالد ملياً . ثم قال فى شيء من التأنى والتأكيد :
« إنا بعيدو العهد بمثل هذا الهواء الصحو الجليل فى زمن الحصاد .
وغدا لا بد لنا أن نشرع فى جنى الثمار ، كما حصدنا البرسيم من قبل دون أن تفسده الأمطار . . ما أشد صفاء السماء ! ،
إن العين لا ترى سحابة واحدة تشوبه . وتهب علينا من الشرق صبا علية باردة تنعش الروح .

أن هذا الهواء من الطراز الثابت الذى لا يتغير بسرعة (١) .
وهاك القمح قد نضجت سنابله وأمعنت فى النضوج . فغداً
نبدأ حصاد هذه الغلة الوافية الوافرة . »

فى أثناء كلامه هذا كانت جماهير الرجال والنساء تتزايد .

(١) أن صاحب الفندق كثير التغاؤل لان الطقس يتغير فعلا قبل انتهاء اليوم .

وكلهم يخترق الميدان قاصدا إلى داره . وكان يُرى في جملة
العائدين جارهـم التاجر الغنى . أكبر تجار البلدة وأعظمهم
شأنا . وقد دخل الميدان من الناحية الأخرى ومعه بناته
في مركبة مفتوحة من الطراز الذى يصنع فى مدينة لاندو .
وهكذا عادت إلى الطرقات الحياة واشتدت بها الحركة .
لأن المدينة ، على صغرها ، كثيرة الأهل والسكان . وبها كثير
من الصناعات والحرف الناجحة .

كان الزوج والزوجة جالسين فى مدخل الفندق ، ينظران
الى هذه الجموع ، يـموج بعضها فى بعض ، ويتسليان بما يشاهدان
أمامهما ، ويتبادلان العبارات والاشارات . إلى أن قالت الزوجة
الكريمة : « أنظر ! ها هو ذا القس قد عاد وهو مُيمَّمٌ شطرنّا .
وهذا جارنا الصيدلى قد رجع أيضا . وسيقضان علينا من غير
شك كل ما رأياه هناك ، بما لا تُسر لمرآه العيون . »

وحقا وصل الصديقان إلى الفندق ، وحيّا الزوجين أحسن
التحية . ثم جلسا على دكتين من الخشب فى الدّهليز . وبعد
أن نفضا الغبار عن أقدامهما ، وتروّح كل منهما بمنديله ،
وتبادل الجميع عبارات التحية والسلام ، أخذ الصيدلى يتكلم

فى شىء من الغيظ والكمد فقال : « إني لأعجب كل العجب
لهؤلاء الناس — وهم فى هذا جميعا سواء — إذ يحلو لهم أن
يقفوا ويَحْمَلُوا لما يصيب جارهم من مكروه، ولما ينزل به
من خطب . قترهم يسارعون ويتدافعون، لكى ينظروا النيران
تندلع لهيبها وتجتاح ما حولها . . ويبادرون الى رؤية المجرم
المسكين حين يساق إلى الموت . واليوم نراهم جميعا قد
انطلقوا ليشاهدوا ما حل بأولئك الطريدين من شقاء
وما يعانون من آلام . وقلبا يفكر أحدهم أن قد يحل به ما ألم
بأولئك الثعساء، إن عاجلا أو آجلا . اللهم إني أجد فى هذا
خفة لا تغتفر، وإن كانت مغروسة فى طباع البشر .

فتكلم القسيس وكان رجلا ذكى العقل، كريم النفس؛
زينة أهل المدينة جميعا؛ وهو بعد أدنى إلى الشباب وإن
كملت رجولته . وكان أدري من صاحبه بالحياة، وأعرف
بما يريده السامعان من الأنباء . ناهيك أنه رجل قد طالع
الكتب المقدسة وتعمق فى درسها؛ وامتلا صدره بما حوته
من الآيات الغالية، التى تكشف عما تكنه الصدور من الأسرار،
وما تضره المقادير لبني الانسان . وكذلك كان ملها بأحسن

ما في الكتب الدنيوية .

وتكلم القسيس فقال : « لست أود أن أُلوم بني الانسان
من أجل أعمال ضررها يسير . ثُمليها الغريزة ، ويدفعهم إليها
الطبع . فان غرائز الناس ، التي تقودهم على رغبتهم ، وتحكم
في أهوائهم فتسيرهم كما تشاء ، تلك الغرائز كثيرا ما تصيب
النجاح والتوفيق حيث يفشل العقل والتدبير ، وتقصر الحكمة
والذكاء . . قل لي بربك إذا كان شغف الانسان بالاستطلاع
لا يجذبه بتلك القوة الساحرة ، فأني له أن يدرك ما بالكون
من حسن النظام وجمال التنسيق ؟ فالانسان في مبتدأ أمره
شغفٌ بالبحث عن كل جديد . بعد هذا يسعى وراء النافع
المفيد ، وأخيرا تلقاه يطلب الخير وينشد الصالح من الأمور .
لكي يرتفع بهذا شأنه ويعلو به ذكره . فهو في شبابه ترافقه
الخفة والرعونة وتلازمه أينما سار . وتخفيان عن عينه
الآخطار التي قد تعترض طريقه . وإذا حلت به كارثة أو نزلت به
ملبة فسرعان ما تمحوان آثارها وتزيلان آلامها . ولنعم
الرجل الذي يستطيع أن يولد من رعونة الشباب هذه عقلا
رصينا يجد ويدأب في السراء والضراء على حد سواء . فيفعل

الخير ويُعلَى من شأنه . ويصلح الفاسد ويزيل الشرور .
وكانت السيدة الفاضلة قد عيل صبرها فقالت مخاطبة
الرجلين: « لكن ألا تحدثانا بما رأيتم اليوم؟ فبودى لو أحطت
بهذا علما . »

فتكلم الصيدلى جارهم في جدٍّ وهدوءٍ ، فقال : « هيات أن
يعود الى قلبى السرور بكل هذه السرعة بعد الذى شاهده
اليوم . ومن ذا الذى يستطيع أن يصف لكم ذلك الشقاء ذا
الأشكال والألوان . . لقد لاح لنا من بعيد مُثار النقع ،
ونحن لم نتحدر بعد الى السهوب . وكانت جموع الطريدين
قد أخذت تصعد ثم تنحدر من كثيب الى كثيب . فلم يكن
من المستطاع أن تتبينَ الأعين من أمرهم شيئاً . ولما بلغنا
الطريق التى تعترض الوادى وتصل بين جانبيه ، رأينا الناس
ما بين راكب وراجل ، يتزاحمون ويتدافعون . وأبصرنا
أيضاً — ويا للأسف — بعض أولئك التعساء ، وقد أخذوا
يمرون بنا ، فاستطعنا أن نقرأ فى وجوههم ما يعاينه الطريد
الشريد من مرارة وألم ، وما يحسه ، رغم هذا ، من سرور
وفرح ، إذ تسنى له أن ينقذ حياته من بين مخالب المنون .

أجل لقد كان من المؤلم حقا رؤية تلك الأمتعة العديدة من كل نافع مفيد ، مما نراه عادة في كل منزل عُني أصحابه باعداده وتنسيقه . فيجعلون لكل متاع مكانه الخاص به ، تتناوله الأيدي بسهولة كلما دعت إليه حاجة ثم ترده الى مكانه . . .
والآن كُنّا نرى كل تلك الأمتعة . وقد اختلطت وامتزج بعضها ببعض ، بعد أن انتزعت من مواضعها انتزاعا .
وحملت على عجل فوق مطايا وركائب من كل نوع ومن كل طراز . فكنت ترى الغربال وأغطية الصوف ملقاة فوق خزانة الثياب . والفراش الوثير وسط وعاء العجين ، وغطاء المائدة ملقى على المرأة . . . ولقد مارسوا من غير شك ذلك الفزع الذى قاسينا شره نحن منذ عشرين عاما في أثناء الحريق الهائل . إذ طاشت بنا الأحلام ، فأخذ الناس يجمعون الغث من الأشياء ويتركون الثمين من خلفهم ، وكذلك شاهدت اليوم أولئك المشردين وقد احتقبوا من تافه الأمتعة وحقيرها ، ما أضمنوا به مطاياهم ودوابهم : فمن فرش بالية ، إلى براميل قديمة . الى بيت للطيور أو قفص للعصافير . كل هذا وأمثاله قد جمعوه واحتموه بدقة وعناية ، لكن من غير عقل

ولا تدبر . ولكم رأينا اليوم من طفل صغير أو امرأة ضعيفة .
تلهث إعياء ونصبا ، وهي تنوء بما تحمله أو تجره من جِوالق
أو سقط أو باطية . كلهما مملوء مفعم بأمّعة ليس فيها نفع
ولا غناء . . فما أشد حرص الانسان حتى على الحقير النافه
بما ملكت يمينه !

وهكذا كانت جماهير الطريدين تسير في طريقها ، وقد ثار
من فوقها الغبار ، وهي تمشي على غير هدى ، وتتدافع من غير
نظام : هذا تعبّت دوابه ويريد أن يسير الهويني ؛ وذلك
عَجِلٌ يريد أن يسرع في خطاه . وهنا تسمع صياح نساء وأطفال
قد آدهن الزحام . وهناك تسمع خُوار الدواب وعواء الكلاب ؛
وهناك تسمع عويل الشيوخ والمرضى ، وقد أجلس كل منهم
على ظهر مركبة قد حملت أقصى ما تستطيع أن تحمله ، فهي
تهزه هذا عنيفا .

ويا ليت هذا كل ما يكابدون . فان الزحام الشديد كثيرا
ما يميل بالعجلات عن الطريق ويدفع بها إلى حافة الجسر .
قهوى المركبة الى الخندق ، ثم تنقلب بما تحمله من متاع ومن
ناس ، ولحسن الحظ قد سقط الناس بعيدا وسط الحقول ،

وأما الصناديق الثقيلة فهوت الى جانب المركبة . ولقد خُيِّلَ الى من شاهد هؤلاء الناس عند سقوطهم أن سيراهم وقد حطمتهم تلك الصناديق والخزائن . بل سحقتهم سحقاً . . على كل حال لقد تحطمت المركبة ؛ وبقي أصحابها حيارى ما لهم من معين . فقد تركهم الآخرون وانطلقوا في سبيلهم ، يدفعهم التيار دفعا ، فلا يعينهم سوى أمر أنفسهم . وقد أسرنا نحو هؤلاء المرضى والشيوخ الهرمين الذين برح بهم السقام ، بحيث لو كانوا في ديارهم وعلى فراشهم لكفاهم ما يعانون من ألمٍ ووصب . فكيف بهم الآن وكلهم طريق الأثرى مضطجع الجسم ، يئن ويتأوه . وقد أحرق حر الشمس بحياه ، وخنقه الغبار المتطاير . .

فقال صاحب البيت ، وقد أثار الحديث في قلبه عاطفة الرحمة : « ليت ولدى هرمن يلقاهم ، فينعشهم ويكسوهم . أما أنا فما أحسبني أرغب في رؤيتهم ، لأن منظر الشقاء يؤلمني ، ولقد تأثرنا حينما سمعنا الأنباء الأولى عما يعاينيه أولئك البائسون ، فبادرنا مسرعين بارسال شيء مما فضل عن حاجتنا ، مساعدة للقليل منهم ، وهكذا استراح ضميرنا نوعاً ما .

والآن فلنترك ذكر تلك المشاهد الأليمة ، فانهما سرعان
ما تبعث الرعب فى القلوب، فتملؤها بهموم وأشجانٍ هي شرٌ
من الخطب الذى آثارها فى النفس .

فهلّم بنا إلى الحجرة الخلفية الصغيرة ، ذات الهواء البارد
العليل ، فهى ليست معرضة لأشعة الشمس ، والهواء الحار
لا ينفذ إليها بفضل هذه الجدران السميكّة . وهناك فلتحضر
الأم العزيزة لكل منا كأساً من نبيذ العام الثالث والثمانين (١)
وبهذه الكأس فلتنفض عنا غبار الهموم . أما هذا الدهليز
حيث نحن الآن . فلا يصلح للشراب ، إذ سرعان ما يحدق
الذباب بأقداح الراح ، .

فانطلقوا جميعاً الى تلك الحجرة فرحين بتلك الكأس
المنعشة . وهناك أحضرت لهم الأم النبيذ الأبيض الصافى
فى قارورة مصقولة لامعة على صينية من الصفيح المجلوّ المضيء .
وقد صفت فوقها أقداح من الزجاج الأخضر : وهى أقداح

(١) أى الذى صنع من عنب سنة ١٧٨٣ . وكانت سنة اشتهرت بجودة عنبها
وجودة الجر التى صنعت من ذلك العنب . وواى الرين من أشهر أقاليم أوروبا
إنتاجاً للخمر .

نبيذ الرين الحقيقية . وجلس الأصدقاء الثلاثة حول مائدة
مستديرة سمراء اللون ، قد أجيد صقلها ، ذات قوائم ضخمة
متينة .

ولم تكد الأقداح تُملاً حتى رفع صاحب الدار والقسيس
كأسيهما ، وتدافع الكأسان برفق . . بيد أن ثالثهم قبض على
كأسه مطرقاً مفكراً . ولم يرفعها عن المائدة . فأخذ صاحب
البيت يستحثه بعبارة رقيقة . وقال : « هلم أيها الجار العزيز
فاشرب معنا ! ألا ترى أن الله جل شأنه ، قد وقانا سوء برحمته
وكرمه إلى اليوم ، وإخاله سيرعانا في مستقبل أيامنا أيضاً .
ومن يستطيع أن ينكر أنه تعالى منذ ابتلانا بذلك الحريق
المفزع : فأنزل بنا ذلك العقاب الصارم ، لم يزل بعد ذلك يغمرنا
بالسعادة ويشملنا بالرعاية والعناية ، كما يعنى المرء ويحرص
على إنسان عينه وهو أعز الجوارح عليه . . بعد هذا كله
أبحرنا ، سبحانه ! هذه الحماية والمعونة ؟ على أن قوته تعالى
وسلطانه إنما يبدوان للأعين حين تنزل الشدائد وتحقق
الآخطار . . أيمكن . أنه وهو الذي أقام صرح هذه
المدينة الزاهرة ، وشيدها بأيدي بنينا المجدين ، بعد أن كانت

رماداً وأتقاضاً، ثم أسبغ عليها فضله وبركته، يعود اليوم فينزل
بها الدمار والخراب؛ ويقضى على كل تلك الجهود؟
فقال القسيس بصوت هادئ رقيق وقد سره ما سمعه:
« تمسك بأهداب الايمان. واعتصم، ما استطعت، بهذه
الآراء: فبمثلها تغدو في أوقات السعادة رزناً مطمئناً، وهي
في زمن الشقاء نعم السلوى والعزاء، ونعم الباعث للأمل
والرجاء! »

فأجاب رب البيت بعبارات تبدو فيها الرجولة والحكمة.
فقال: « لكم كنت أحيي نهر الرين وتياره المتدفق، كلما عدت
إليه بعد أسفاري ورحلاتي. ولكنني قلنا خطراً أن ضفافه
الجميلة ستصبح يوماً بمثابة السد المنيع، لنندراً به عنا الفرنسيين.
وأن سيغدو مجراه الفسيح خندقاً ليقينا ويدفع الشر عنا. فانظر
كيف تحفظنا الطبيعة. وكيف يحمينا الألمان البواسل، وكيف
يكلؤنا الإله جل جلاله! فأى أحق ينجح أو يكفر؟ إن
المحاربين قد سئموا القتال وأضنتهم الحروب، وكل شيء يدل
على اقتراب الصلح والسلم. ومتى احتفل الناس بالصلح، الذي
يشتهي الجميع منذ زمن، فاني أرجو أن نحتفل به نحن أيضاً

في كنيستنا، فيمتزج صوت النواقيس بأنغام الأرغن، وقراءة صلوات الابتهاج بصوت البوق .

وبودى يا سيدى القسيس لو أن ولدى هرمن يُعقد له في ذلك اليوم على العروس . فيتقدم بها بين يديك الى المذبح . فيكون ذلك العيد السعيد، الذى تحتفل به البلاد جميعا، عيدا لسعادتنا المنزلية في مستقبل الأيام .

وإني ليَحْزُنُنِي أن أرى هذا الشاب - على جده ونشاطه في أعماله - ساكنا رزينا، كثير الخجل والحياء، زاهدا في رؤية الناس والتحدث إليهم . راغبا حتى عن صحبة الغيد ، وعن الرقص وهو قبلة أنظار الشباب ، .

كان الوالد يتكلم على هذا النحو ، ثم أمسك عن الكلام فجأة . وأخذ يصغى : فاذا صوت سنابك الخيل يقترب ويزداد جلاء ووضوحا . والضوضاء آخذة في التزايد تدريجيا؛ ثم سُمِعَت عجلات مركبة مسرعة تجرى بصوت كأنه قصف الرعود . ووقفت فجأة لدى باب الدار .

....

النشيد الثانى

تربسيكورا^(١) TERPSICHORE

(الهة الرقص)

هرمن

دخل الابن الى الحجرة ، فاذا هو قى حسن الصورة طويل
القامة .. تلقاه القسيس بنظرات حادة نافذة ، متأملا قوامه
وناقد حركاته بعين الباحث الخبير ، الذى تخترق فراسته
الحجب ، ويستنبط الأسرار من غير عناء . وقال له بلهجة
المخلص الأمين : « إنك لتعود إلينا إنسانا غير الذى عهدناه

(١) الموسا التى تنشده هذا النشيد هى إلهة فن الرقص . وفى الحق أن لا مناسبة
بينها وبين ما فى هذا الفصل . ولا يعرف لماذا اختارها جوت دون غيرها عند التكلم
عن هرمن وهو الذى ينفر من الرقص . على كل حال ما دامت هنالك تسعة أناشيد
فى الكتاب وفى الخرافات تسع ربات للفن . فلا بد أن تتولى كل واحدة الاشراف على
أحد هذه الاناشيد . ولا بد فى بعض الاحيان ألا يكون هنالك تطابق بين ما هو معروف
عن ربة الفن فى العرف وبين ما هو منسوب لها هنا .

وعرفناه . وما أحسبني رأيتك يوماً ووجهك ممتلئ بشراً
وسروراً ، وفي ناظرِكَ هذا البريق الذي أبصره الساعة . .
إنك تقبل علينا فرحاً طروباً ، لأنك من غير شك قد قسمت
الهدايا بين أولئك البائسين ، فدعوا لك أطيب الدعوات ، .
فأجاب الفتى بالفاظ ، فيها جدٌ وهدوء : « لست أدرى
هل فعلت شيئاً أحمد عليه . غير أني في كل ما عملت ، لم أفعل
غير الذي أملاه على قلبي . وهأنذا أقص عليكم القصص كله :
« إنك يا أماء قضيت زمناً غير قصير في جمع الأشياء
وفي اختيارها . فلم تنهياً الحقيقة إلا بعد لآي . وكذلك النيزد
والجعة ، قد استغرق إعدادهما زمناً غير قليل . وحين انطلقت
أخيراً من المنزل ، وسرت في الطريق لقيت كثيراً من الناس
راجعين أدراجهم بنسائهم وأطفالهم ، لأن جماهير اللاجئين
كانوا قد ابتعدوا . فلما أدركت هذا الأمر ، ثبتت أعنة الخيل .
ووجهتها بسرعة تلقاء القرية ، وقد أبلغت أنهم سييتون بها
ليلتهم .

« وبينما أنا أعدو بالمركبة في الطريق الجديد ، إذ دهشني
منظر مركبة ، ذات قضبان متينة ، يجرها ثوران من أشد الثيرة

قوة وأضعفها جسما ، وإلى جانبها فتاة تمشى بخطى ثابتة .
وفي كفها عصا طويلة ، وهي تقود هاتين الدابتين ، على ما بهما
من بأس وقوة ، بحنكة وبمهارة : طورا تدفعهما للأمام ، وتارة
تردهما الى الوراء .

« وحينما أبصرتني اقتربت من جوادى وقالت : « لم تكن
دائما حليقي الشقاء كما ترانا الآن فى طريقنا هذا . وما اعتدت
يوما أن أسأل الغريب عرفا أو ألتمس منه صدقة . والناس
قلما تهب عن رضى بل لكى تتخلص من لجة السائل .
أما اليوم فندفعنى الحاجة الى الكلام : هنا قد اضطجعت على
الخطب عقيلة رجل من ذوى اليسار ، لم أستطع إلا بشق
النفس أن أنجو بها ، على هذه المركبة وبهذين الثورين وقد
جاءها المخاض . وبعد ذلك وضعت طفلها ، فلم نلحق بالآخرين
إلا بعد حين . باتت وليس بها من الحياة إلا الذماء ، وبين
ذراعيها طفلها الرضيع ، تحتضنه وهو عريان : وهيات أن
يستطيع أقاربنا أن يمدوا إلينا اليوم يد المساعدة ؛ ولئن كانوا
سبقونا الى تلك القرية ، حيث لبغى المبيت ليلتنا هذه ، فانى
أخشى أن يرتحلوا عنها قبل أن نصل إليها . فان كان لديك شيء

من كَتَّانٍ ليست لك به حاجة وكنت من أهل هذا الحى
فلا تبخل به على البائسين . »

« عند ما نطقت بهذه الكلمات ، رفعت النفساء وجهها
الشاحب من بين الحطب اليابس ، وجعلت تنظر إلى ؛ فقلت
للقتاة : « إن الصالحين من بنى الانسان كثيراً ما توحى إليهم
روح سماوية ، فيحسون ما ألم باخوانهم من متربة وما نزل بهم
من ضيق ؛ وكذلك أمى العزيزة كأنما ألهمت ما أتما فيه من
عناء ، فأعطتني هذه الحزمة ، وبها كل ما يسد حاجة ذلك الطفل
العارى ، : ثم حلت عقدة الحبل وناولتها جبة الوالد ، وشيئا
من الثياب والمقماش ، فشكرت لى صنيعى ، وقالت ووجهها
يفيض سرورا : « ألا إن السعداء لا يدركون أنه لم تزل فى العالم
معجزات تقع . أما فى وسط الشقاء فان الانسان يحس يدالله
وبناؤه القادرة ، حين تهدى الصالحين إلى صالح الأعمال .
ألا فليسبغ عليك النعمة التى أسبغها علينا الآن بيدك ! » .

« ولقد رأيت النفساء وهى فرحة تلبس يديها الثياب
المختلفة ، كأنما سرها على الخصوص ملمس الصوف فى جبة
النوم . ثم قالت لها الفتاة : « لنسرع الآن الى تلك القرية ، حيث

تستريح الجماعة وتقضى ليلتها ، ومتى بلغناها فساء بادر بتسارك
كل ما يحتاجه الطفل ، وكل ما يلزمنا . ثم أقرأتني السلام .
وبالغت في شكرى على صنعى ، ثم دفعت الثورين ، فانطلقت
المركبة .

وأما أنا فترثت قليلا ، وحسبت الجوادين عن السير برهة ،
فقد جعلت أحس في قلبى نزاعا ، وجعلت أتساءل : أنطلق
إلى القرية مسرعا ، وهناك أقسم ما معى من الزاد بين سائر
الناس ، أم أكتفى بأن أعطيه كله لتلك الفتاة ، لتولى توزيعه
بينهم ، بما أوتيته من حكمة وعلم ، ولم يطل ترددى بل تبعت
الفتاة على مهل ، ولحقت بها بعد قليل ، وقلت لها مصارحاً :
« أيتها الفتاة الصالحة ! ان الذى أعطيتيه الوالدة ليس قاضرا
على الثياب التى تستر الجسد العارى ، بل أضافت إليها زادا
وشرابا كثيرا . ولدىّ منه فى داخل المركبة شئ ليس بالقليل .
وقد صحت رغبى فى أن أضع بين يديك هذه الهبات أيضا ،
ولعل هذه هى خير وسيلة للقيام بما عهد إلى . فأنت بلا شك
تولين تقسيمها بعقل وتدير ، أما أنا فيكون اعتمادى على محض
الصدقة » .

« فأجابت الفتاة قائلة : « سأتولى توزيع هباتك بأمانة .
ويجب أن ينعم بها من هم أشد احتياجا إليها » . وعند ذلك
بادرت بفتح صندوق المركبة فأخرجت منه تلك القطع الكبرى
من لحم التخزير ثم الخبز فقناني النيسد والجمعة . حتى لم يبق
لدى شيء . وما أشد شوقي لأن أعطيها أكثر مما أعطيت لولا
أن قد نفذ ما في الصندوق .

« وقد وضعت الفتاة تلك الهدايا جميعا عند أقدام المريضة ،
وربطتها ربطا محكما ، ثم مضت في سبيلها ، أما أنا فسقت الجوادين ،
راجعا أدراجي إلى البلدة » .

وعند ما أتم هرم من حديثه ، أخذ الجار الثرثار يتكلم فقال :
« سعيد لعمرى في هذه الأيام : زمن التشرد والاضطراب ،
سعيد جدا من يعيش في داره فريداً وحيداً ، لا زوجة تفرع
إليه ولا ولد . ولهذا أراى اليوم سعيدا ، ولا أعبدل بحالى
هذه شيئا . إذ لست أدعى والداً ؛ وما لى من طفل أرعاه ،
أو زوج أعنى بأمرها .

ولقد كنت غَيْرَ مرةٍ أتوهم الهرب ، فأجمع الغالى

والثمين من المتاع : من نُقود مدبَّخرة ومن حُلِيٍّ خلفتها أُمِّي
 البرَّةَ رحمها الله! ولم أُفرِّط في شيء منها حتى الساعة لكنني وجدت
 أن لا مفر من ترك الشيء الكثير مما لا يسهل الحصول عليه
 فيما بعد . ولقد يعز عليّ أن أدع ورأى تلك الأعشاب
 والجذور ، وإن لم تكن بالشيء القسيم ، فقد بذلت في جمعها
 مجهودا غير قليل . بعد هذا اذا بقي مساعدى من ورأى ، فان
 في هذا ما يعزىنى على هجرى لمنزلى . ومتى نجوت بنقودى
 وبجسدى فقد أُنقذت كل شيء ، وما أسهل النجاة على الرجل
 الوحيد ! » .

فقال له هرمن مؤكدا : « ما أراى أيها الجزار مقرا لك
 على ما تقول . بل أنى أعاتبك على التحدث بمثل هذا القول .
 أيجوز للزجل ذى الجدارة والفضل ، ألا يفكر وقت الشدة
 أو الرخاء إلا فى نفسه ، فلا تحرك قلبه عاطفة ؛ ولا يجد لذة
 فى مشاطرة غيره السرور والحزن . أما أنا فلعمرى ما أحسنستُ
 كالיום رغبة فى أن أرتبط برباط الزواج ، فكم من فتاة صالحة
 تُعوِّزُها حماية الرجل القوى ، وكم من فتى حلَّ به الشقاء فبات
 فى حاجة الى امرأة تبعث فى قلبه السرور » .

هنا ابتسم الوالد وقال : « أَحْبَبَ إِلَى سَمَاعِ هَذَا الْكَلَامِ مِنْكَ ! وَلَقَدْ سَمِعْتُكَ تَنْطِقُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْحَكِيمَةِ مِنْ قَبْلُ » .

وقالت الأم على الأثر : « حَقًّا بُنَى نَطَقَتْ بِالصَّوَابِ وَإِنَّكَ لَتَرَى فِي وَالِدِكَ خَيْرَ مِثَالٍ لِمَا ذَكَرْتَ . فَلَمْ يَكُنِ الْيَوْمَ الَّذِي ارْتَبَطْنَا فِيهِ يَوْمَ سَعَادَةٍ وَرَخَاءٍ . وَبِرَغْمِ هَذَا فَإِنْ سَاعَاتِ الشَّدَةِ قَدْ زَادَتْ رَبَاطُنَا وَثِقًا وَمَتَانَةً ... » .

« كَانَ الْيَوْمُ يَوْمَ اثْنَيْنِ فِي وَقْتِ الصَّبَاحِ . وَإِنِّي أَذْكَرُ هَذَا جَيِّدًا إِذْ كَانَ الْيَوْمَ التَّالِي لِيَوْمِ الْحَرِيقِ الْهَائِلِ ، الَّذِي اجْتَنَحَ مَدِينَتُنَا الصَّغِيرَةَ وَدَمَّرَهَا . - أَجَلٌ وَلَقَدْ مَضَى عَلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ عَشْرُونَ عَامًا كَامِلَةً . فَقَدْ كُنَّا فِي يَوْمٍ أَحَدِ كَمَا نَحْنُ الْيَوْمَ ، وَكَانَ الْهَوَاءُ حَارًّا جَافًا وَلَمْ يَكُنْ بِالْمَكَانِ مَاءٌ إِلَّا الْقَلِيلُ . وَكَانَ النَّاسُ يَتَنَزَّهُونَ ، مَرْتَدِينَ أَحْسَنَ ثِيَابِهِمْ ، وَقَدْ انْطَلَقُوا إِلَى الْقُرَى وَإِلَى الْحَنَاتِ وَالْأَرْحِيَةِ . فَاشْتَعَلَتِ النَّارُ فَجْأَةً فِي طَرَفِ الْمَدِينَةِ . - ثُمَّ أَخَذَتْ تَجْتَنَحُ الطَّرِيقَ بِسُرْعَةٍ هَائِلَةٍ ، وَفِي أَثَرِهَا رِيَّاحٌ شَدِيدَةٌ التَّيَّارُ قَدْ أَثَارَتِهَا النَّيْرَانُ ، وَلَمْ يَمُضْ قَلِيلٌ حَتَّى التَّهَمَّتِ النَّارُ مَخَازِنَ الْغَلَالِ ، بِمَا تَكَدَّسَ فِيهَا مِنْ مَحْصُولِ تِلْكَ السَّنَةِ الْغَنِيَّةِ .

الكثيرة الخيرات . واحترقت الطرقات جميعا حتى الميدان .
والتهمت النار دار والدى وكانت قريةً من هنا ، كما التهمت
هذه الدار أيضا . وما استطعنا أن نتقذ من متاعنا إلا القليل .
» فى تلك الليلة الليلاء بقيت ساهرةً عند المروج فى ظاهر
المدينة ، أحرس الضناديق والفُرُش . الى أن غلبنى النعاس
فنمت ، وعند الصباح أيقظتنى برودة الفجر ، فنظرت فاذا
الدخان المتصاعد والانقاض المتهبة بين الأسوار والمداخن
العالية . . وقد انقبض لهذا المنظر صدرى .

» وبرغم هذا لم تلبث الشمس أن طلعت فى كامل روعتها
وبهائها ، فبعثت فى نفسى روح البسالة والجلد ، فنهضت على
عجل ، وانطلقت وبنفسى رغبةً مُلحةً فى أن أتفقد الموضع
الذى كانت فيه دارنا ، ولأنظر لعلَّ دَجاجنا قد نجا ، فلقد كنت
أحبه جأ جأ ؛ وكنت بعدُ فى مثل سداجة الأطفال .

جعلت أتمشى فوق أنقاض الدار والحديقة؛ ولم يزل يتصاعد
منها الدخان ، وقد أصبح المسكن الأمين قفرا بلقعا . ورأيتك
فى تلك الساعة مقبلا من الناحية الأخرى تتفقد المكان ، وكان
جواد من جيادك محتبسا فى الاصطبل المدمر . وقد تكدست

فوقه كتل من الخشب المحترق والانقراض المضطربة : بحيث
لم يكن للجواد أثرٌ يرى .

وهكذا كنا واقفين : أحدا قبالة الآخر ، مُطْرِقَيْنِ
حزينين ، وقد تداعى الجدار الذى كان يفصل بين داريننا .
فقبضت أنت على يدي وقلت لى : « ما الذى جاء بك الى هنا
يا ليزا ؟ ابتعدى فانك تحرقين نفسك ! فان بالانقراض نارا
حامية تحرق نعلَيَّ ، على ما بهما من غَلْظٍ ومثانة .. ثم حملتنى
بين ذراعيك وأخرجتنى من فناء منزلكم ، الذى التهمته النيران .
فلم تبق منه سوى الدَّهْلِيز الكبير بقوسه المعقودة ، على نحو
ما نراه الآن . وهناك أنزلتنى ، وجعلتَ تلثمنى ، وجعلتُ
أدفعك عنى ، فتكلمتَ عندئذ بكلمات تنمُّ عن الحب المتين .
كما تنمُّ عن العقل الرصين . فقلت : أنظرب الى الدار ، كيف
غدت أثرًا بعد عين ! فلا تبرحى أو تساعدنى لأقيم بناءها ،
وأشيد صرحها . وأنا كذلك سوف أعاون أباك على بناء دله .
« لم أفهم لأول وهلة معنى هذه العبارات ، حتى جاءت
أمك الى والدى ، وعُقِدَ لنا - على عجل - زواجٌ ناعمٌ
سعيد .. ومازِلت الى اليوم أذكر ، فى شيء من السرور ،

تلك الانقراض المضطربة ، وأرى مائلة أمام عيني شمس ذلك اليوم ، وملؤها الروعة والجلال . فلقد رُزقت الحليل في ذلك اليوم ، ورزقت بعد قليل ولدى البكر ، والمدينة بعد خراب بلقع .

« من أجل هذا ، ياهر من ! أحمد لك هذا الايمان ، وأناشدك أن تبادر فتختار لك في هذه الاوقات العصية ، فتاةً سالحة . تخطبها ، على رغم هذه الحرب الضروس ، وما بها من تخريب وتدمير . »

وتكلم الوالد بشيء من الحماس قال : « ألا إنه لحاظراً سعيد ما قد خطر لك أيتها الوالدة . والحكاية التي قصصتها صحيحة في كل جزء من أجزائها . ولكن هنالك حال خير من تلك الحال . فليس بمُقَدَّرٍ لكل إنسان أن يبتدىء حياته من جديد . فيجد وينصب ، كما كنا نحن نجد وننصب . وإنما السعيد حقاً من أسلمه الولدان داراً عامرة ، ثم يتسع رزقه فيزيد في جمالها وزينتها .

« إن البدء في كل شيء أمر عسير ، وعسير بنوع خاص البدء في إقامة منزل وعمارته . وحاجات الانسان كثيرة

متعددة ، وأثمانها تزداد في كل يوم . فينذل المرء جهده كي يزداد ماله . . ولهذا أرجو يا هرمن أن تبادر بعد قليل باختيار زوجة طيبة ، تدخل هذه الدار ومعها مهر صالح . والفقي الصالح أولى الناس بالزوجة ذات اليسار . وهو جدير وحقيق بأن تدخل اليه الحسنة ، تتبعها الصناديق والأسفاط ، فيها الهدايا النافعة . وليس من العيب أن تقضى الأم السنين الطوال ، في إعداد الأقمشة ، التي تجمع بين الدقة والمتانة من أجل ابتها ، وليس من العيب أن يهدي الأقرباء ما عندهم من الأواني الفضية . وأن يفتش الوالد في داخل أدراجة عما خبأ فيها من قطع الذهب النادرة الوجود . ليس هذا كله عبثاً ، لأن الفتاة ، بكل هذه الهدايا والمنح ستشرح صدر عروسها ، الذي اختارها واصطفها على سائر النساء .

وإني لأعلم ما تحسسه الزوجة الفتاة من ارتياح واغترباط ، حين تنظر الى البيت الذي اتخذته داراً لها ، قبرى في المطبخ وفي كل حجرة من الحجرات وأوانها التي جلبت معها ، والفراش الذي فرشته ، والمائدة التي أعدتها هي وبسطتها . : أجل وإني لمُصِرٌّ على ألا تدخل هذه الدار إلا عروس مجهزة مشورة .

فان الفقيرة لا تلبث أن يحقرها زوجها ، وينظر اليها كما ينظر إلى الخادم . إذ دخلت الدار وليس معها إلا حقيرة خادم . والرجال قليلو الانصاف وأوقات الغرام سريعة الزوال . .
 « أجل يا عزيزي هرمن ! لئلاّن كهولتي سروراً لو أنك أسرع ، فاقتدت الى هذه الدار عروساً من فتيات هذه الناحية ، بل من بنات جيرانا : من تلك الدار الخضراء التي أمامنا . والرجل لعمري من السّرة ، وله تجارة وصناعة يزداد بهما في كل يوم غنى : وأى التجار لا يكسب ويربح ؟ وليس له من البنات إلا ثلاث . ستؤول اليهن وحدهن كل تلك للثروة ؛ أما الأولى فقد خطبت وقضى الأمر ؛ وبقيت الثانية والثالثة . ولكن لن تبقيا هكذا طويلا . ولو كنت مكانك ما ترددت حتى الساعة . بل لبادرت فظفرت باحدى الفتاتين . كما فُزْتُ أنا من قبل بأملك العزيرة . »

لم يجد الفتى بُدّاً ، أمام إلحاح والده وإصراره ، من أن يجيب على مقاله . فقال في تواضع وحياء : « لقد كانت إرادتي من قبل وفق إرادتك اليوم : أن أختار إحدى بنات جارنا . فلقد

نشأنا ورؤينا معاً . ولطالما لعبنا معاً في تلك السنين الغابرة
لدى البئر التي في الميدان . وكثيراً ما وقفت دونهن ، أدفع
عنهن شراسة الصبيان . بيد أن هذه أيام قد خلت . وقد قرَّ
الفتيات في دارهن بعد أن كبرن . وأصبحن اليوم بعيديات
عن ألعابنا الخشنة .

« أما أدبهن العالي فأمر مسلم به . ولقد كنت أختلف الى
دارهن من حين الى حين ، تبعاً لارادتك ، واستبقاءً للودة
القديمة . ولكنني ما أحسست يوماً سروراً أو اغتباطاً
بصحبتهم والتحدث اليهن . فلقد كن دائماً يجدن في موضعاً
للتقذ واللوم . وكان على أن أتقبل هذا كله منهن ! فأحياناً
ألام لأن ردائي طويل وقماشه خشن ولونه قبيح ذميم -
وأوتة ألام لأنني لم أحسن تصفيف شعري وتجعيده . حتى
لقد صممت أخيراً أن أتأق في ملابس وأزوق ، كما يفعل
أولئك الفتيان من أولاد التجار ، الذين القاهم أبداً هناك في
الآحاد ، والذين تتدلى قطع الحرير من ثيابهم دائماً في فصل
الصيف . لكنني لم أكّد أفعل ذلك ، حتى جعلن يسخرن مني .
فكان هذا مؤلماً لنفسى ، جارحاً لكبريائي . على أن الذي

استقمتى وعنائى حقاً أنهن كن ينكرن منى كل كلمة طيبة أونية
صالحة اتقرب بها اليهن جميعاً، والى (مينا) الصغرى خصوصاً
فلقد ذهبت لزيارتهم فى عيد الفصح الاخير، ولبست فى ذلك
اليوم ثوبى الجديد، وهو المعلق فى الخزانة الآن، ولبست
شعراً مستعاراً مصففاً شأن بقية الفتيان، لكنى لم أكّد أدخل
حتى جعلن يتخالسن الضحك. فلم أبدأ اشارة، كأُنْ غيرى
المقصود بهذه السخرية. وكانت (مينا) جالسة الى اليانو، وكان
والدهن جالساً يصغى منشرح الصدر، وقد أطربه غناء ابنته،
أما أنا فقد استعصى على ادراك الكلمات التى اشتملت عليها
الاغاني، ولكنى سمعت اسمين يترددان المرة بعد المرة وهما
(پامينا) و(تامينو) (١) ولم أرد أن أبقي صامتاً لا أنطق بحرف. فلما
انتهى الغناء جعلت أسأل عن القطعة وعن ذينك الشخصين،
فسكت الجميع وهم يتسمون. ثم نظر إلى أبوهن، وقال:
أليس صحيحاً يا صديقى أنك لا تعرف من بنى الانسان غير

(١) Pamina و Tamino شخصان فى إحدى أوبرات موزار الشهيرة وهى

النأى المسحور (Zauber floete). وفى السنة التى تيمرى فيها حوادث هذه

القصة (حوالى سنة ١٧٩١) كانت هذه الأوبرا بعد حديثه جداً، فلا يتظر من قى
ساذج مثل همرن أن يكون قد علم من أمرها شيئاً كثيراً.

آدم وحواء؟ عند ذلك لم يستطع أحد من الحاضرين أن
يمسك نفسه ، فأغربت الفتيات في الضحك ، وأرعد الفتيان
ضاحكين ، وقبض الوالد على بطنه يديه . وملكتني أنا الحيرة
فسقطت قبعتي من يدي . وبقي الجميع معمّنين في الضحك ،
حتى أثناء العزف والغناء . ولم أطق صبراً على كل هذا فعدت
مسرعاً الى منزلي ، وأنا نهبة للكآبة والخلج . فخلعت تلك
الثياب وأودعتها الخزانة ، واتزعت ذلك الشعر بأصابعي .
وأقسمت لاوطئت رجلى عتبة دارهن بعد ذلك اليوم .
وحق لي هذا فان رؤوسهن قد امتلات بالغرور والخيلاء ،
بقدر ما خلعت قلوبهن من الحب .

ولقد علمت أني مازلت أدعى في دارهن (تامينو) الى وقتنا هذا
فقال له الام : « ما ينبغي لك يا هرمن أن تطول موجودتك
على أولئك الطفلات — وما هن في الحقيقة الا طفلات —
ومينا الصغيرة فتاة صالحة ، وكانت أبدا تعطف عليك ومنذ
عهد قريب كانت تسألني عنك . وتحسن لو اتخذتها زوجاً لك .
فأجاب الفتى مفكراً : « لست أدري ، غير أن الكدر الذي
استولى على ذلك اليوم قد ترك في قلبي أثراً عميقاً . فبت وما

بي رغبة لرؤية مينا ولا للانصات الى عزفها وغنائها .
وتكلم الوالد في شيء من الحدة والغضب فقال : « ما أراى
واجداً منك شيئاً ترتاح اليه نفسى . ولطالما قلت لك هذا
مراراً وتكراراً . حينما كنت أراك وليست لك فى الحياة لذة
سوى الاهتمام بالمزرعة وبالحيل . وتلك لعمري أعمال يؤديها
غلام من غلمان السادة ذوى اليسار . فكيف لثلثها ينصرف
الابن بدلا من أن يقوم بما يرفع رأس أبيه بين أهل المدينة .
ولطالما كانت أمك تعلنى بالأمانى الكذاب : حينما كنت
عاجزاً وأنت بالمدرسة ، عن تعلم الكتابة والقراءة وحفظ
الدروس كما يفعل سائر الفتيان . فكنت الاخير من بينهم
جميعاً . ولعمري لقد كانت تلك حالا لا مفر منها ، مادام
صدر الشاب خالياً من الشمم والكبرياء . فلا يطمح ببصره
الى المعالى .. آه لو أن أبى عنى بأمرى عنايتى بأمرى . فأرسلنى
الى المدرسة وخصص لى المعلمين والمؤددين ! أجل لو أنه فعل
هذا كنت اليوم شيئاً آخر غير صاحب خان (الاسد الذهبى) .
عند ذلك نهض الغلام واقرب من الباب فى صمت وفى سكون
وهدهوء يريد الخروج لكن الوالد أتبعه هذه الكلمات وهو

حاتق غاضب : « أجل فلتذهب ولتنصرف عنا ! وأنا عالم بما
فى رأسك من عناد واصرار . اذهب اذن وانظر فى شئون
الدار والمزرعة . كى لا أسمعك من التفریع أمره وأقساه !
لكن حذار أن تجلب يوماً الى هذه الدار فتاة من بنات
الفلاحين رعاة الابقار لتكون لابنى زوجا ! لقد عشت طويلا
وتعلمت كيف أعاشر الناس وكنت أحتفى بهم . فيرجعون
قريرى الاعين ، منشرحى الصدر . وتعلمت كيف ألاطف الغريب
وأدخل على قلبه السرور . ولهذا لا بد لى فى النهاية من أن
تكون كى فتاة طيبة . تنسنى بحلاوة خلقها ما قاسيت
من مرارة وعناء . ولا بد أن تجيد العزف على البيانو . ولا بد
أن تصبح دارى ملتقى الطبقات الأنيقة من أهل المدينة .
يفدون اليها ويقبلون على زيارتنا كما يفعلون أيام الآحاد فى
دار جارنا .»

وهنا أمسك الفتى بمزلاج الباب . وفتحه بسكون وغادر
الحجرة .

النشيد الثالث

طاليا^(١) THALIA

(الهة الكوميديا)

سكان المدن

هكذا اعتصم الفتى المتواضع بالفرار، هرباً من ذلك
الخطاب العنيف ..

غير أن الوالد لم تهدأ ثأثرته، وعاد الى الكلام كما بدأ .
فقال : « انك لن تستخرج من إنسان ما ليس فيه . وهيات
أن أشهد تحقيق أمنيى العزيزة التى آتمناها أبدا : وهى أن الولد
يجب ألا يكون مشابها لآبيه ، بل أعلى منه درجات . وإلاَّ

(١) فى هذا الفصل يشرح المؤلف بالطبقات المتوسطة (البورجوا) . وكلمة
« سكان المدن » لا تؤدى تماما معنى بورجوا ؛ فهؤلاء عادة جماعذوو يسار يتشبهون
بالخاصة ولكن عقليتهم السطحية تقرهم من العامة . فآله الكوميديا اذن تلائم هذا
النشيد تماما . وصاحب الفندق يمثل هذه الطبقة أحسن تمثيل هو والصيدلى .

فأين يكون مصير الأسرة ، بل مصير المدينة كلها ، اذا لم يكن همُّ كل فرد أن يحرص على تالده ، ويستحدث الطريف الجديد ، ويعنى أبدا بتحسين ما لديه ؟ . .

« ذلك هو الدرس الذى علمنا إياه الزمان . كما علمتنا إياه البلاد الأخرى . . وما ينبغى للانسان أن يكون مثله كمثل نبات (عيش الغراب) ، ينمو فى الثرى ، ثم يدركه العطب فى المكان الذى نماه وأخرجه ، دون أن يترك وراءه أثرا فيه مظهر من مظاهر الحياة .

« وحسب المرء نظرةً يلقيها على الدار ليعلم من صاحب الدار ، وما مبلغ ذكائه وعقله . كما نعلم كيف تُدار المدينة وكيف تحكم لمجرد خطوات نخطوها فى طرقاتها (١) . فحيث ترى الأبراج قد تداعت ، والأسوار قد مالت . والخنادق والأزقة قد تكدّست فيها القمامة وحيث الأحجار قد تقلقلت فى كل بناء ، فلا ترد الى مواضعها . وحيث الدعائم توشك أن تسنار ، والحاجة مُلحة الى دعائم جديدة . فحيث ترون ذلكم كله

(١) يجب تنبيه القارىء الى أن المانيا فى ذلك الزمن كانت مقسمة عدة وحدات مستقلة . تتركب أحيانا من مدينة صغيرة وقطعة من الأرض تحيط بها .

فأيقنوا أن المدينة قد ساءت حكومتها .. لأن الطبقات العليا اذا لم تفرض النظافة والنظام فرضا على من دونها، فسُرعان ما يعتاد أهل المدينة القذارة والاهمال، كما يعتاد الشحاذ لبس الرداء الخلق .

« كثيرا ما وددت لو أن هرمن يبادر بالقيام ببعض رحلات .. فلا أقل من أن يزور استراسبورج وفرانكفورت، ويرى مدينة مانهم الجميلة البناء والتنسيق . فان من شاهد المدن الكبرى وما بها من نظافة ورُواء، فلن يقر له قرار حتى يعجل بتجميل مدينته مهما كانت صغيرة .

«أرايتم كيف يعجب الغرباء بأبواب مدينتنا بعد إصلاحها، وبالبرج الناصع البياض، وبالكيسة بعد تجديدها؟ أليس الكل معجبا بطرقنا المرصوفة، وبالقنوات ذات المياه الجارية المغطاة، المنتشرة في كل ناحية . وهي على كثرة فائدتها مصدرٌ للسلامة والأمن، وبواسطتها استطعنا مكافحة النيران عند بدء اشتعالها .

« نخدثوني بالله، ألم تتم هذه الأعمال كلها منذ ذلك الحريق المروع ؟ ولقد كنت في مجلس المدينة ست مرات، متوليا رئاسة الأعمال العامة ، فقامت بما جعلني جديرا بأن يهتف لي

أهل المدينة وأن يبدلوا إلى جزييل شكرهم . فلقد كنت أقترح الخطط . ثم أمضى في تنفيذها، بل وفي تنفيذ ما اقترحه سواي من أهل المدينة ثم عجزوا عن إكمال وإتمامه . واخيرا دب الخماس في أعضاء المجلس جميعا، فجعل كل منهم يجد ويدأب . حتى لقد أصبح في حكم المقرر إنشاء ذلك الجسر العظيم الذي يصل المدينة بالطريق الجديد .

« لكنني أخشى كثيرا أن الشباب لن يتخذنا مثالا وقدوة، فهم إما فريق لا يفكر في غير السرور والملاذات، ولا يعنى بغير الآتيق من اللباس، والتأفف من الأمور . وفريق آخر يقبع في عقر داره، ويحتفي وراء موقد النار مدى الحياة .. وإني لأخشى أن هرمن سيبقى أبدا من هذا الطراز . »

فقالت الأم وهي تلك المرأة الصالحة العاقلة : « انك أيها الوالد ما كنت يوما منصفًا لابنك . وانك بهذا تجعل من العسير أن يتحقق رجائك فيه . »

وليس في وسعنا أن نكون أبناءنا وفقا لأهوائنا . أليسوا هبةً وهبنا الله إياها؟ فما علينا إلا أن نحرص عليهم، ونبدل لهم كل حب ورعاية، ونحسن تربيتهم بقدر استطاعتنا، وبعد ذلك

نتركهم وشأنهم . فان لكل منهم مواهب ، يستخدمها وينتفع بها .
غير مواهب الآخرين . ولن يصيب الواحد منهم صلاحا
أو سعادة في الحياة إلا بما يقتضيه مشربه ونزعتة .

« واني لن أسمح لأحد أن يضع من قدر ولدى هرمن ،
وأنا أعلم علم اليقين أنه حقيق وجدير بتلك الثروة التي ستؤول
يوما إليه . . فهو ربُّ منزلٍ قلَّ أن يوجد له نظير . ومثال
يقتدى به أهل الحضر وأهل الريف على السواء . وأرى من
الآن ، وأنا واثقة بما أرى ، أنه لن يكون الأخير في مجلس
المدينة ودار ندوتها . لكنك بهذا اللوم والتفريع ، في كل
لحظة وآونة ، تكدر صفاءه ، وتجعل صدره ضيقا حرجا ،
كما فعلت الساعة . »

وبعد أن قالت هذه الكلمات ، غادرت الحجرة مسرعة ،
تبحث عن نجلها ، لعلها ان لقيته أن تأخذ في ملاطفته ومؤانسته
وأن تعيد السرور الى قلبه . وهو بهذا كله جدير .

ولم تصكد الأم تخرج حتى ابتسم الوالد ، وقال :

« حقاً إن النساء لجنس غريب؛ وما هن في الحقيقة إلا كالأطفال،
تسير كل واحدة منهن حسب ما يمليه هواها، وعلينا نحن أن
نسترضيهن بالملاطفة حيناً، وبالثناء عليهن حيناً.

« غير أنني ما زلت مصراً على صحة ذلك المثل الذي علينا
القدماء إياه وهو: من لم يسر إلى الامام، رجَّع القهقري .»
فقال جاره الصيدلي متمهلاً، كما يزن الكلام وزناً (١):
«وأفقتك كل الموافقة على ما قلت. وأنا نفسي أتلتمس الأحسن
وأشدّه دائماً؛ على شرط ألا يكون غالى الثمن، مع جودته
وجدته . وإلا فماذا يجدى على الانسان دأبه وجده في اصلاح
ما لديه ، ظاهراً وباطناً، إذا لم يكن كيسه مفعماً بالمال ؟ ان
ساكن الحضر محدودة موارده جيداً، فهو قد يرى الشيء الصالح
فلا تجرؤ نفسه أن تشتهيهِ، وما دام كيسه قليل النقود وحاجاته
كثيرة العدد، فلا عجب اذا رأيتَه أبدا عاجزاً، مكتوف
اليدين .

«وأنا نفسي أود أن أقوم بأعمال شتى؛ لكن من ذا الذى

(١) جعل المؤلف من هذا الصيدلي مثلاً للرجل الذى يقول أنه الاتقوال . بشكل
من يتكلم كلاماً ذا أهمية كبرى . ولهذا هو يزن كلماته وزناً .

لا يحجم ولا يتردد أمام النفقات الباهظة ، خصوصا في هذه
الأزمة الخطيرة؟ فمذ عهد بعيد أفكر في تنميق منزلي وتجميله
طبقا للشرب الحديث؛ بحيث يصبح لنوافذه الفسيحة زجاج
كبير لامع بَرَّاق. ولكن مَنْ مَنَّا يستطيع أن يقتدى بذلك
التاجر الذي يعرف على رغم كثرة أمواله . كيف يحصل على
أحسن الأشياء بأبخص الأثمان؟ أنظر الى داره الجديدة التي
بناها قبالتنا! ما أجمل أعمدها اللؤلؤية البيضاء ومن ورائها
الحديقة الخضراء. وانظر إلى زجاج النوافذ وحجمه الكبير!
وكيف يلعب كأنه مرآةٌ وضيئةٌ. حتى لقد تلاشت بجانبه سائر
المنازل في هذا الميدان... ومع ذلك ألم يكن بيتي (صيدلية الملاك)
وبيتك أنت (الأسد الذهبي) أحسن بيوت هذا الميدان جميعا
بعد الحريق بزمان وجيز؟ ولقد كانت لحديقتي شهرة في سائر
الاقليم . وما من مسافر إلا وقف لديها لحظة ينظر من خلال
السياج الى التمثال الحجري للشحاذين ، والصورة الملونة للأقزام .
ولكم دعوت الأضياف الى تناول القهوة في الغار المشيد بالحديقة -
وهو الآن قد أخذ يتداعى ويلوّه الغبار - فكانوا جميعاً يعجبون
أشد الإعجاب بذلك الضياء المتعدد الألوان المنبعث من القواقع

المنضدة أحسن تنضيد . . وكان الخبير بهذه الأشياء ينظر حائرا إلى المعان الرصاص والمرجان المصطنع . وكذلك كانوا يعجبون بصورة في الصالون تمثل سيدات وسادة يتزهون في الحديقة ، لابسين أبهى الثياب ، ويتناولون الأزهار بأيديهم ، أو يمسكونها بأطراف الأصابع .

« أما الآن فمن ذا الذي يلتقي مجرد النظرة على شيء من هذا ؟
إني أنا نفسى - لشدة غيظى - قلما أخرج الى الحديقة الآن .
وقد أصبح من الواجب تغيير كل شيء ، لكى يصبح وفاقا للذوق الحديث كما يزعمون . ويجب أن تظلى الأخشاب جميعا باللون الأبيض وكذا المقاعد الخشبية . ويجب أن يكون كل شيء بسيطا خاليا من كل حلية . فلا ينبغي أن تكون هنالك أخشاب محفورة أو مذهبة . والأخشاب الأجنبية هي أعز أنواع الخشب وأغلاها .

« ولهذا ترانى على شدة ولعى باقتناء الجديد ورغبتي فى مسابقة الزمن ، بأن أُغَيَّرَ وأبدل أثاث المنزل من آن لآن ؛ أجد الناس جميعا يحجمون حتى عن تبديل أقل الأشياء ، وأصبح العمال بحيث لا يستطيع أحد دفع أجورهم .

« ولقد خطر لي حديثاً أن أكلف من يقوم بتذهيب
الملاك ميكائيل ، وهو كما تعلم شعار الصيدلية ، وكذا التَّينين
المخيف الملتف حول رجليه . ولكنني اضطررت ، لارتفاع
الشن ، أن أتركه ليكتسب اللون الأسود على مضى السنين . »

....

النشيد الرابع

يوتربيا
EUTERPE

(الربة الشعر الغنائى)

الأم وابنها

وبينما الرجال يتجاذبون أطراف الحديث ؛ ولتتمسكون
فى الحديث ما استطاعوا من لهو وتسليه ، كانت الأم منهمكة
فى البحث عن فتاها . فتفقدته أولا خارج البيت على المقعد
الحجرى الذى اعتاد الجلوس عليه . فلما لم تجده هناك انطلقت
الى الاصطبل لعله قد ذهب هناك : الى تلك الصافنات الجياد ،
التي اشتراها وهى أمهار ، وأبى أن يقوم على رعايتها أو يُعنى
بها أحد سواه .

أنبأها الخادم أن مولاه انطلق الى الحديقة ، فجعلت تجتاز
الفناءين على عجل ، تاركة وراءها الاصطبل ، والإجرا

المحكمة البناء . ودخلت الحديقة : فاذا هي فسيحة الأرجاء ، قد امتدت الى سور المدينة ؛ وقد أقرَّ عينها ما رآته فيها من نماء وازدهار . فجعلت تقيم المتداعى من الدعائم التى تستند عليها غصونُ التفاح ، أو فروعُ الكمثرى ، المجلَّلة بالثمار . وتتنزع الحشرات والديدان عن الكرب الذى أمعن فى النمو . كانت تعمل هذا كله وهى سائرة فى طريقها ، لأن المرأة النشيطة لا تتخطو خطوة خلوا من النفع والفائدة .

وأخيراً وصلت الأم الى نهاية الحديقة ، حيث الجوسق يكسوه الياسمين . لكنها لم تجد لللقى أثراً لاهنالك ولا فى سائر الحديقة . يد أنها لاحظت أن باب الجوسق منفتح قليلاً وهو باب صغير قد رُكِّبَ فى سور المدينة . وهذا دليل الخطوة والرعاية التى نالها أحد الأجداد إذ كان للمدينة عمدة من خيار العمدة .

خرجت الأم من ذلك الممر الى ما وراء السور . وهناك أبصرت الكروم يحيط بها سياج متين الصنع : وقد غُرست على منحدرات تسطع فيها أشعة الشمس . وقد امتدت غُرُوشها صاعدة على تلك المنحدرات .

صعدت الأم وسط هذه العرائش ، وقد راقها ما رآته
من وفرة العناقيد . حتى ما تكاد الأوراق أن تخفيها .
وكان بين العُرُش طريق مُظَلَّل يَرْتَقى الى أعلى الكثيب .
ويُصْعَدُ اليه بدرجات غير منتظمة من الحجر . ومن العُرُش
كانت تتدلى عناقيد العنب الرّازقي والمسكاتي ، والى جانبيها
عنب بَنَفْسَجِيٌّ اللون ، قد امتاز بحباته الضخمة .

هذه الكروم جميعاً قد غرست من قبل بمجد وعناية ،
لكي تتحلى بثمارها مائدة الضيوف بالفندق . وعلى الكثيب ،
غير هذه العرش ، شجرات مبعثرة حباتها أصغر حجماً ، ومنها
تعصر تلك الصبهاء الغالية .

جعلت الأم تصعد الكثيب ، وقلبا يحس السرور سلفاً
لاقتراب الخريف ، ولما يؤذَنُ به من أعياد يحتفل فيها أهل
الناحية . فيجتنون أطيب العناقيد ، ثم يدوسونها بأرجلهم (١)
ويجمعون العصير في الخوابي . وفي المساء - تكرّماً للغلة الوافرة -
تُرى الألعاب النارية وهي تملأ الفضاء بأضوائها وضوضائها .

(١) عصر الخمر بواسطة الأرجل (بعد غسلها بالطنج) كان شائعاً في ذلك
الوقت . كما أنه ذائع في مصر لاستخراج الزيت من بعض البذور مثل السمسم وغيره .

لم تلبث الأم أن ازداد قلقها ، حين نادى ولدها مثنى وثلاث . فلم يجبها غير رجع الصدى ، ترده أبراج المدينة ... ولم يكن من عاداتها أن تفتش عنه ، ولا من دأبه أن يذهب بعيداً . وما كان له أن يذهب دون أن ينبها بذهابه كي يهدأ روعها ، ويطمئن قلبها .

على أنها لم تزل ترجو أن تلقاه في هذا الطريق ، لأنها رأت أن بابي الكرمة : الأسفل والأعلى ، كلاهما مفتوح . فاجتازت البابين الى الحقول التي يظهر الكثيب ، وهي أيضاً من ممتلكات الأسرة . وقد سرها منظر البُرق . قد مالت سنابله موقرةً بما تحمل من حبٍّ ذهبي .

جعلت تمشي وسط المزرعة في ممر ضيق . ووجهتها دوحة الكمثرى القائمة على ربوة تلي الكثيب . وهي الحد الذي تنتهي اليه ممتلكات الأسرة .

وهذه الدوحة علم بارز ، تلمحه العيون من سائر أطراف الاقليم ، ولثمارها شهرة واسعة ؛ ولا يعرف أحد من الذي غرسها . . . وكثيراً ما يأوي اليها الحاصدون وزعاة الأبقار ، فيجلسون في ظلها ساعة الظهيرة ، ولهذا كان تحتها مقاعد من

الحجر الخشن والعشب اليابس .

ولم يكذب ظن الأم ، فلقد كان هرمن هناك حقاً ، كان جالساً في ظل الشجرة معتمداً ذراعيه . وكأبما ينظر إلى الجبال ، مولياً ظهره إلى الناحية القادمة منها أمه . فتقدمت هذه نحوه في هدوء ورفق ، ولمست كتفه يديها . فالتفت إليها فجأة ، فرأت الدمع يترقق من عينيه .

فقال لها وهو كالمأخوذ : « أماه إنك أتيتني على غرّة ! »
وجعل يكف بكف دمه على عجل .

فقالت الأم ، وأحزنها مارأته : « ما هذا ، أتبكي يابني ؟
إني أبكر هذا منك ، وما عهدتك يوماً بالذي تدمع عيناه !
قل لي بما الذي انقبض له صدرك وألمت له نفسك ، ودفع بك إلى الانفراد في ظل هذه الشجرة ؟ ولم يكفك هذا حتى جعلت تذرف الدمع ؟ »

فقال الفتى نفسه وقال : « إن الذين لا تأخذهم عاطفة
رحمة على أولئك الشريدين ، هم أناس صدورهم من نحاس ،
وليس بين جوانحهم قلوب . وقليل العقل جدا من لا يُعنى
في هذا الزمن العصيب بسعادته وسعادة وطنه . . ولقد ألمت

نفسى اليوم لما سمعته بأذى وما أبصرته بعينى ، ونظرت الآن الى ما حولى : فرأيت هذه المزارع المترامية الأطراف . تكسو الكتبان والسهوب ، المحيطة بنا من كل صوب : ورأيت السنايل الذهبية ، وقد مالت تنتظر الحصاد . والفاكهة اليانعة وتوشك أن تكتظ بها خزانتنا . . . ولكن ماذا يجدى هذا كله والعدو على أبوابنا ؟

« ولئن قيل إن نهر الرين بتياره المتدفق يحمينا ويعصمنا ، فأى نهر وأى جبل يستطيع أن يقينا بأس ذلك الشعب الخفيف ، الذى يزحف علينا كأنه الريح العاصف ذات البروق والرعود . وهامهم أولاء قد أهابوا برجالهم شباناً وشيخاً ، واحتشدوا زمرة فى إثر زمرة ، وفوجاً وراء فوج . وأخذوا يزحفون علينا بعنف ؛ وهم فى عديدهم الهائل لا يرهبون الردى ؛ ولا يُفلّ لهم عزم . ثم بعد هذا نرى من الألمان من يجرؤ على البقاء فى داره ، كأنما سولت له نفسه أن سوف يُفلت مما يهدد الناس جميعاً من الويل والثبور .

« فبأيها الأم العزيرة ، إني اليوم كدت أتميز من الغيظ ، إذ ذكرت أنهم قرروا اعفائى ، حينما اختاروا المقاتلين من

أهل المدينة . لست أنكر أنني الابن الوحيد ، وأن بيتنا كبير ،
وأعمالنا ذات شأن وخطر . ولكن أما كان أجمل بي وأجدر
أن أقف هناك على الحدود مدافعاً ومانعاً ، من أن أتى هنا
أنتظر الشقاء والاستعباد ؟ أجل وبهذا تحدثني نفسي . وإني
لأحس في أعماق قلبي بأساً وعزماً يدفعاني لأن أحيا للوطن
وأموت للوطن ، وأكون للآخرين قدوة ومثلاً .

« ولعمري لو أن شباب الألمان بكامل قوتهم احتشدوا
على الجبود ، مجتمعين على ألا يهينوا أمام العدو ؛ إذن لما
استطاع أن يطأ هذا الثرى العزيز بأقدامه ، وأن يلتهم ثماره
اليانعة أمام أعيننا ، وأن يتحكم في رجالنا ، وأن يسلبنا
نساءنا وبناتنا .

« انظري يا أماه ! إني قد قرّ رأيي ، وصح عزمي على أن
أبادر الساعة ، بل هذه اللحظة ، الى إمضاء ما أراه عدلاً
وصواباً . . ولا خير في تفكير طويل ، قد لا يهدى الى
الرشد دائماً . وما من داع الى أن أعود الى دارنا ؛ بل أنطلق
من هنا الى المدينة رأساً ، فأقدم الى الجند هذه الذراع وهذا
القلب من أجل خدمة الوطن . »

« فهل يصر الوالد بعد هذا على أنى لست ممن يجيش
بصدرهم طبع كريم ، أو يتطلعون بأبصارهم الى المعالى ؟ »

سالت عبرات الأم الطاهرة — وهى سرعان ما تدمع
عينها — وأجابته بعقل وروية : « أى طارىء يابئنى قد بدّل
من طبعك ومن خلقك ، فأصبحت لا تخاطب أمك بتلك
الصراحة التى عودتها إياها بالأمس ، وقبل الأمس . وأمسيت
وما تحدثها بحقيقة ما تضره وما تريده ؟ لو سمع قولك الآن
ثالث لخدعته عبارتك وحديثك الخطير : ولا تثنى عليك أطيب
النساء ، وحكم بأن عزمك هذا من أشرف الأمور وأجلها .
« أما أنا فانى ألومك ، لأنى أدرى بك وأعرف ...
إنك تكتم فى قلبك سرا ، وتخفى خلاف الذى أبديت ..
وأنا أعلم أنك لست بمن يستهويهم دق الطبول وصوت الأبواق ،
ولا ممن يلذ لهم أن يظهرُوا أمام الفتيات فى ثوب الجنديّة
البراق . وبرغم ما أنت عليه من شجاعة وإقدام ، فإن مهنتك
التى تهواها هى أن ترعى المنزل ، وتعنى بالمرعة . إذن فلتجبنى
إجابة صريحة : ما الذى دفعك الى ما عزمت عليه ؟ »

فأجاب الفقى : « لقد أخطأ ظنك يا أماء ! فان المرء لا يبقى على حال مدى الأيام . والفقى ينضج فيغدو رجلا . وأولى له أن ينضج فى هدوء وسكون ثم ينهض بجليل الأعمال ، من أن يكون نضوجه وسط ضوضاء حياة مضطربة جامحة ، طالما كانت نكبةً على الفتیان . . . وإني برغم ما كنت عليه أبداً من الهدوء ، قد نما فى صدرى قلب حساس ييغض الظلم والأذى . وأصبحت قادراً على التفريق بين ما فى هذه الحياة الدنيا من أمور ومذاهب . ولقد كان العمل فى المزرعة سبياً فى أن اشتد ساعدى ورجلاى . .

« إن هذا الذى أزعجه صحيح كله ، وفى وسعى إثباته وتوكيده ... غير أنى لست أنكر أنك أصبت أيتها الأم ! فى عتابى ولومى . فلقد أخذت على كلمات قلتها الآن ، فيها شائبة كذب ، وفيها شائبة رياء . وإني أعترف لك بأنى لست أبغى هجر الديار خوفاً من الخطر المحدق ، أو من أجل فكرة سامية تدفعنى لأن أكون للوطن عوناً ، وعلى الأعداء حرباً . . . هذه عبارات فُت بها لعلى استر بها عنك ما بقلبي من وجد يكاد أن يشقه ويمزقه . فذرني الآن أمضى ما عزمت عليه . فلئن أصبحت

وما يجيش بصدري سوى آمال ضائعة ، فأجدر بهذه الحياة
أن تذهب في إثرها .

« وإني لأعلم علم اليقين ، أن الأفراد إنما يسرون الى
الدمار من غير جدوى ، إذا لم يستشعروا المنفعة العامة فيما
يأتون من الأعمال » .

فقال الأم العاقلة : « إمض في حديثك : وقص على كل
شيء : من جليل أو حقير ! .. إن الرجال فيهم غف وشدة ،
فلا يلمسون من الوسائل إلا ما فيه غلو وإفراط . وبرغم
شدتهم وغفهم فانهم كثيراً ما تخرجهم العقبات التي تعترضهم
عن الجادة القويمة . أما المرأة فهاهنا في التماس أواسط الأمور .
وتعرف كيف تسلك أحياناً طريقاً بعيدة توصلها الى غايتها
ومقصدها .

« فقص على الآن كل شيء . ولتحدثي بما أثار أشجانك
بمثل هذا العنف الذي مارأيتك منك يوماً . وبما أهاج الدم في
عروقك ، وأسال الدمع من عينيك ، على الرغم منك » .
هنالك خان الفتى تجلده ، وغلبه الحزن والشجن . فجعل
يبكى ويتحب ، مستنداً الى صدر أمه : وقال بصوت فيه حزن

ورقة : « إن الذى قاله اليوم أبى قد جرحنى جرحاً دائماً ،
ما أظننى أستحق هذا منه اليوم ، وما أظننى كنت يوماً لمثله
مستحقاً . فلقد كنت وليس أحب الى نفسى من تمجيد أبوىَّ
وإعزازِهما . وما كنت أرى فى الحياة من هو أكثر عقلاً
وأحكم رأياً من هذين الذين ربيانى صغيراً . ثم جدّاً فى إرشادى
وتأديبى طوال عهد الطفولة المظلم .

« ولطالما كنت أحمل الاساءة والأذى من أترابى ، إذ
يقابلون حركاتى البريئة بالحقد والموجدة : وقلما كنت أبه لهم .
أو أقابل منهم الأذى بمثله . . يد أنى إذا رأيتهم يهزأون بأبى
حين يخرج من الكنيسة تكسوه الهيبة والوقار ، أو يسخرون
من الرباط المعقود حول قَبْعَتِهِ ، أو الأزهار المطرزة على
جُبَّتِهِ التى كان يلبسها فى جلال وأبهة — وهى الجبة التى أهديت
اليوم — فهناك كان يأخذ الغضب منى مأخذه ، فأوسعهم
لكما وضرباً ولكرا ، لا أعرف ولا أبالى أين تقع ضرباتى
منهم . ثم ينصرفون وهم يقولون وينتحبون ، والدم يجرى
من أنوفهم مدراراً ، ولا يكاد الواحد منهم أن ينجو من وابل
الضرب واللطم إلا بشق النفس .

« بعد ذلك جعلت أكبر وتزداد سنى ، فيزداد ما أكابده من والدى وما أعانى . إذ كان يجعلنى غرضاً للسهم التى يريد أن يرمى بها الغير . فكلمنا لقي فى مجلس المدينة عتاً أحفظه ، كنت أنا الذى أدفع الثمن لما لاقاه من زملائه من نزاع ودسائس . حتى لقد كنتِ أنتِ تأسِنينِ لى وترثينِ لما أعانى .

« ولقد كنت محتملاً لهذا كله ، مستشعراً أبداً أن للآباء علينا حرمةً وفضلاً ، إذ ليس همُّهم من الحياة إلا أن يكثرُوا الجمع والاقْتناء من أجْلنا ، ولقد يزهدون فى كثيرٍ من متاع هذه الحياة كي يدخروه لنا معشر الأبناء . . لكننى — وبالإسْف — لا أرى السعادة كل السعادة فى هذا الجمع فى الحاضر لكى نَنعمَ به فى المستقبل . . أجل لست أرى السعادة فى تكديس المال : كُدْساً على كدس ، والأرض : فداناً إلى فدان ، مهما حَسُنَتْ شكلاً ومنظراً . . لأن الوالد فى أثناء هذا كله تتقدم به السن ، والأبناء يكبرون . وليس لهم من نعيمِ يَوْمِهِمْ نصيب ، والمستقبل أبداً يُمهمُّمُ وَيُنْصِبُهُم . . وأنظرى إلى ما يحيط بنا من هذه المزارع الوافرة . وإلى هذه الكبروم والحدائق ، من ورائها الأجران والاصطبلات .

وكلها مرصوفة منسقة ، المتاع بلى المتاع . فما أبدعها جميعاً
وما أكثر خيرها !

ثم انظرى بعد هذا إلى طرف الدار ، وإلى حجرتي
الملتصقة بالسقف ، والتي تبدو لنا نافذتها من هنا ! تعود الآن
إلى خاطري ذكرى ليالٍ قضيتها هناك ، انتظر طلوع القمر
في الليل ، وبزوغ الشمس في الصباح ، مكثفياً بساعات قلائل
من النوم الصحيح العميق . . كنت أنظر حولي فأحس
الوحدة ، ولا أرى في الحجرات أو في فناء الدار ، أو في
الحديقة المزهرة والحقول المنبسطة فوق الكشبان . لا أجد في
هذا كله إلا خلاءً مجذباً قفراً . وأظنني أصبحت تُعوزني الحيلة !
فردت الأم بتعقل وفهم وقالت : « ان والدك ووالدتك لأشد
رغبة منك في أن تتخذ لك شريكة في الحياة ، فتصبح أيامك
ولياليك ناعمة راضية . ولطالما حاولنا اقناعك بأن تختار لك
فتاة ، بل لقد دفعناك إلى ذلك دفعاً . بيد أنى لست أجهل أنه
إذا لم تأذن الساعة ، أو إذا لم تظهر الفتاة المنشودة ، فقد يلبث
الاختيار مُعلّقاً زمناً طويلاً . فيسوفُ المرء ويؤجل ، خشية
أن يسيء الاختيار .

« لكن قلبي يحدثني بأنك قد اخترت وقضى الأمر . وكأني
أرى قلبك قد شُغِفَ ، فبات أكثر إحساساً بما عهدناه .
إذن اصْدُقْنِي الخَبر الآن . فان نفسي قد أحسَّت الحقيقة منذ
حين . إن التي اخترتها هي تلك الفتاة الشريفة . »

فأجاب الفتى بحماس : « لقد أصبتِ يأمأه ! إنها هي .
ولئن لم يُتَخَلَّ لي أن أصطحبها اليوم إلى دارنا عروساً وزوجاً .
فانها ستمضي في طريقها ، وقد تختفي فلا أراها بعد اليوم .
بسبب هذه الحرب الضروس ، وما هم فيه من حل وترحال
وأسفار . ولئن فقدتها ، فستغدو هباء كل هذه الثروة ،
وهباء ما تأتي به السنون المقبلة من خيرات ، والدار التي أسكن
والحديقة الغناء سوف تنبو عنهما نفسي . بل وأنت أيها الأم
العزيزة لن تجدي إلى تسليتي سيلاً . لأن الحب ، حين يُوثَّق
رباطه ، يحل عقدة كل رباطٍ آخر . وليست البنت وحدها
هي التي تهجر والديها من أجل الرجل الذي اختارته وارتضته ،
بل كذلك الفتى ينسى أباه وأمه إذ يرى الفتاة التي اختصها
بالحب تتوارى عن عينه .

« فدعيني الآن انطلق إلى حيث يقذف بي اليأس . فقد

قال والدى فى هذا الأمر كلمته القاطعة ، وهيهات أن تكون داره بعد اليوم دارى ، مادام يأتى أن تدخلها الفتاة التى أهوى من بين سائر النساء .»

فأجابته الأم على الفور : « ما أشبه الرجلين المتخاصمين بالصخرة تواجه الصخرة ! كلاهما قد امتلأ جموداً وكبراً ، ولا يريد أن يقترب من الآخر قيد أنملة . أو أن يحرك لسانه بكلمة طيبة تلقاه الآخر . لكنى على رغم هذا لا يزال فى صدرى بارق أمل بأن أباك سيزوجك منها مادامت على شئ كثير من الأمانة والصلاح ، برغم ضيق ذات يدها ، وبرغم كل الذى قاله اليوم من أنه يبغض مصاهرة الفقراء . فانه كثيراً ما يقول فى حديثه المألوفة عبارات لا ينفذ منها حرفاً . بل كثيراً ما يقبل الشئ الذى كان يرفضه ويأباه . وكل ما هنالك أنه يجب أن يقال له كلمة طيبة ، وهو لعمري جدير بهذا لأنه السيد الوالد ...»

« ونحن جميعاً نعلم أن غضبه هذا ، الذى يثور من بعد المائدة ، ليس بشئ ذى خطر ، فهو يتكلم بشدة وبعنف ، وقد أثار النينذحفيظته ، وأهاج كل قواه ، فبات لا يحس ولا يسمع

غير صوت نفسه . ويأبى الانصات إلى مايقوله سواه . لكن
الآن قد اقترب المساء ، وقد دار بينه وبين صديقيه أحاديث
شتى : ولا تكاد تذهب عنه حدة الخمر حتى يعود أكثر هدوءاً
وحلماً . ويحس أثر الظلم الذى أنزله بغيره .

« فہلم بنا الآن ، ولنحاول أن نعمل الذى نستطيعه ، دون
أن نضيع لحظة : وما ينبجح فى الحياة إلا الاقدام والمغامرة .
ونحن فى حاجة إلى مساعدة الصديقين اللذين يجالسانه الآن .
وسيكون لنا القس الكريم خير نصير . »

ثم نهضت الأم واقفة . وانهمضت ابنها من مقعده . فقام
يمشى خلفها طائعاً . وسارا كلاهما صامتين ، ينعمان الفكر فيما
ينويان أن يفعلاه .

....

النشيد الخامس

POLYHYMNIA بوليهمنيا

(الهمة الانشيد الربنية)

رجل الدنيا (١)

كان الأصدقاء الثلاثة : القسيس والصيدلى وصاحب
الفندق ، جلوساً بعدُ ، يتجاذبون أطراف الحديث ، الذى لم
يتغير موضوعه ، وإن كانوا قد قلبوه على وجوهه جميعاً .
وأخيراً قال القسيس الكريم الخصال : « لست أبغى معارضتكما
فيما ذكرتما . بل إني مُقِرٌّ بأن الانسان يجب أن ينشد
الأحسن : ونحن نراه فى الواقع يبتغى الأسنى من الامور ،
أو على الأقل يبتغى الجديد . لكن يجب ألا تغلوا . فان

(١) عنوان هذا النشيد رجل الدنيا : أى الرجل الذى اتخذ الدنيا كلها له وطناً
لا يفرق بين الأقطار والأجناس . ولعل هذا إشارة للقسيس . وهناك مقابلة بين
رجل الدنيا Cosmopolite ، وبين البورجوا ساكنى المدينة المذكور فى فصل سابق .

الطبيعة قد أضافت الى هذا أن حَبَّتْ الى الانسان الحرص
على القديم ، والتَّعَمُّ بالشَّيْء الذي أَلِفَهُ واعتاده زمناً طويلاً .
وكل حال للمرء طيبة مادامت تستند على أساس من الطبيعة
والعقل ..

« إن الانسان كثيرة رَغْبَاتُهُ ، لكن حاجاته قليلة ، والعمر
قصير المدى . وحياة ابن الفناء محدودة . ولست بلائيم يوماً
ذلك الرجل ، الذي أراه أبداً مُنْدَفِعاً قَلْباً . يحوم ويجول ،
ويركب البحار ، ويجوب سائر الأقطار ، في هياج دائم وحاس .
ثم يفرح ويضطرب إذ يرى المال يتراكم حوله وحول ذوى
قرباه . ولكنى أرى واجباً على أيضاً أن أُقدِّر كل التقدير
ذلك الرجل من أهل المدينة ، الذي تلقاه هادئاً ساكناً ،
يتفقد باهتمام الارث الذي آل اليه عن أبيه ، ويعنى بالأرض
وبزراعتها في كل موسم ؛ ليس بالرجل الذي يبدلُ أرضه
ودياره كل عام ، فهو يعلم أن الشجرة التي غرست حديثاً لن
تسرع فتُرسل نحو السماء فروعاً مجللة بالزهر ، وأن لا بد له
من الصبر والأناته ، وكذلك لا بد له من فكر طاهر هادئ .
حزين ، ومن فَنَمٍ للأُمُور على حقيقتها ، فهو لا يُلقى في

الأرض الحَصْبَةُ إِلَّا القليل من البذور ، ولا يقتنى من الماشية -
إلا القليل ، الذى يستطيع رعايته والعناية بِنتَاجه . فهو يقصر
همه على ما يستطيع أن ينهض به .

« وسعيدٌ ، لعمرى ، ذلك الرجل الذى منحته الطبيعة -
هذه الدقة فى الخلق ، فان مثله هو الذى يُغذِّنا جميعاً ، .
ولنعْمَ ساكن المدينة الصغيرة إذ يجمع بين حرقة أهل
المدن وحرقة أهل الريف ! فثله لا يحس ذلك العبء الذى .
ينوء بكاهل الفلاح ؛ ولا تزججه الهموم التى تنغص عيش .
سكان المدينة ، الكثيرى المطامع ، الذين يريدون أبداً — وعلى
الأخص نساؤهم وبناتهم — أن يقتدوا بمن هم أكثر مالا
وأعلى مرتبة .

« لهذا وجب عليك أن تحمد لفتاك بمجهوده الهادئ » .
وأن تبارك الفتاة ، التى سيختارها زوجاً له يوماً ما . »

وحين بلغ القسيس هذا الموضوع من حديثه ، دخلت الأم .
وابنها ، وقد قبضت على ذراعه ، ووقفت به بين يدي أبيه
وقالت : « كم مرة أيها الوالد ، كنا نفكر ، ونحن نتحدث ، .

فى ذلك اليوم السعيد ، الذى لابد أن يأتى : يوم يختار هرمن عروسه فىدخل السرور الى قلبنا جميعاً ! ولقد كنا نتذاكر هذا الأمر غير مرة : وكنا نشير عليه أحياناً بهذى وأحياناً بتلك : كدأب الوالدين إذ يتحادثان . والآن اقرب ذلك اليوم : وسأقت المقادير اليه العروس وأرسلها لعينيه . وقد علّقها قلبه ، واستقر عليها رأيّه . ألم ندع له من قبل أن يختار التى يهواها ويرتاح اليها ؟ والآن دنت الساعة ، فلقد أحب واختار وصحت عزيمته على بلوغ ما يريد . والتى اختارها هى تلك الغريبة التى لقيها اليوم ، فأعطه إياها : وإلا فقد أقسم أن يبقى حياته أعزب .

وقال الفتى : « أجل ! هبنى إياها يا أبتي ! إن قلبي اختار بصفاء وإيمان : وهى أجدر النساء بأن تكون ابنة لك . »

صمت الوالد ولم ينس بكلمة : فنفض القسيس قائماً وقال : « إن اللحظة السانحة هى وحدها التى تتحكم فى حياة الإنسان وفى مصيره ومآله . وكل عزيمة للبرء ، مهما طال فيها تفكيره وتديره ، فانها فى النهاية وليدة اللحظة التى يقطع فيها برأى وسرعان ما يقطع الحكيم بالرأى الصواب . »

« وانه لمن الخطر ، عند الحكم والاختيار ، أن يدخل
المرء فى الأمور ما ليس منها . فيحار اللب ، ويضل الفكر .
« ان هـر من قى ثاقب النظر ، وانى لأعرفه منذ الحداثة .
ما كان يومامن طباعه — حتى وهو صبي — أن يمد يده الى هذا
والى ذاك . وما كان يطلب غير الذى يحتاجه ، ثم يحتفظ به
ويحرص عليه .

« فلا تأخذكم الحيرة والدهشة الآن ، لأن الحادث الذى
كنتم ترجونه منذ عهد بعيد قد حدث فجأة ! حقيقة ليس
للحادث ، فى الظاهر ، ذلك الشكل الذى كنتم تمنّونه . لكن
هذه الامانى نفسها كثيرا ما تحجب عنا الشئ الذى تمنناه .
وإنما تنزل الهبات علينا من السماء فى ثوبها هـى ، وفى شكلها .
فلا تنكروا هذه الفتاة التى تحرك لها ، لأول مرة ، قلب ولدكم
العزير وهو ذلك الفتى الطاهر العاقل .

« وأسعد بذلك الرجل ، الذى تمد اليه حبيته الأولى
يدها ، فلا ينقلب جبه شجنا يضويه ويضنيه . ولعمري إني لأنظر
إليه الآن ، فأدرك أن حظه قد تقرر . إن الحب الصحيح سرعان
ما يستحيل به الشاب رجلا رشيدا . وانى لألمح فى وجهه العزم

الذى لا ينتهى عما يروم . ولئن أبيت عليه هذا فقد قضيت عليه
بأن يلبث بقية الحياة — وفيها أبهى سنى العمر — رهين الحزن
والكآبة . »

لم يكد القسيس أن ينتهى حتى تكلم الصيدلى، وكان طوال
هذه الفترة يهم بالكلام . فلا يملك نفسه إلا بجهد وعناء . قال
وهو يمعن فى التفكير: « رويدا ! تعالوا نسلك هذه الكرة أيضا
طريقا وسطا . ولتتعجل مع التريث ! ذاك كان شعار القيصر
أغسطس نفسه . وأنا بودى أن أقوم بخدمة جيرانى الأعزاء ؛
وأن أستخدم فى هذا كل مالدى من ذكائ قليل وفهم
ضئيل . والشباب ، على الأخص ، فى حاجة إلى من يرشده
ويهديه . فدعونى أنطلق الآن لكى أخبر الفتاة . وأسأل
عنها المجتمع الذى يعرفها والذى تعيش فيه . ولست بالذى
يسهل خداعه . وأعرف كيف أنقذ ما يقال لى ، فأطرح
منه الزائف . »

فقال الفتى : « نعم ما تصنع أيها الجار ! فاذهب واستطلع
— ماشئت من الأنباء ! — ووددت لو أنك استصجبت معك
— مولانا القسيس ، فان رجلين جليلين مثلكما ، هما من أعدل

الشهود الذين لا يُتَّهَمون . ويا أبتى ماهذه الفتاة من النساء اللواتي يَجُبْنَ الآفاق في طلب المغامرات ، لكي توقعن في حبائلهن أغرار الشباب ، بالحيل والأكاذيب . كلا بل إن هذه الحرب الضروس ، التي مزقت العالم كل ممزق ، ودكت المغاني والمعاقل ، أجل هذه الحرب الشعواء هي التي شرَّدت هذه المسكينة . ألسنا اليوم نرى رأى العين كرام الرجال تحت كلكل البؤس والشقاء ؟ ألسنا نرى الأمراء يلوذون بالهرب متكرين ، والملوك يعيشون في منقاهم طريدين ؟ وكذلك هي ، وهي زين نساء العالمين ، قد أخرجت من ديارها . فتناست ما بهي فيه من محنة وبلية . وجعلت تقوم بأود الآخرين . فباتت قَادِرَةً في ساعة العجز ، معوَّاةً حين انقطع كل عون .

لقد عم الأرض حزن هائل ، وشقاء شامل ؛ فهلا نشأ وسط هذه النِّقَمِ نعمةٌ واحدة ؟ هلاً أُتَبَحَ لو أن أضْمَ عروسى ، وهي تلك المرأة الأمانة ، إلى صدرى ، فيكون لي وسط هذه الحروب سرورٌ ونعيم ، كما كان لكما من قبل وسط الحريق الهائل ؟ ،

هنالك لم يتمالك الوالد أن فتح فاه وقال : « ليت شعري .
كيف انحلت عقدة لسانك أيها الفتى ، بعد أن كان قابلاً في فمك
طوال هذه السنين ، لا يتحرك إلا بجهد وعناء ؟ فهل كُتِبَ
لى أن أقاسى اليومَ ذلك الخطب الأليم الذى يتهدد الآباء
طُرّاً : إذ تَميل الأمُّ ميلاً لابنها ، وتناصره وتوازره فى
رغبته المِلْحَةِ وارادته الغنيقة ؛ ثم ينحاز اليهما الجار بعد
الجار : وقد تحالفوا جميعاً على الوالد .

وأرانى أمسيت عاجزاً عن مقاومتكم جميعاً ، وماذا
تجدى المقاومة . فانى أرى مُنْذُ الساعة ، روح العناد
والدموع والبكاء .

فاذهبا إذن واستطلعا الأنباء ! فان كانت تلك ارادة الله .
فأحضرا الفتاة الى الدار ، وإلا فما على الفتى إلا التدرُّع
بالنسيان والسُلوان . »

فصاح الفتى فرحاً طروباً : « قبل غروب شمس هذا اليوم
ستكون ابنتك بين يديك ؛ أجل وسُنعِم عليك بفتاة هى
أجل النساء ، وخير ما يمتنى المرء حزماً وعقلاً . وإنى لأرجو
أنها هى أيضاً ستنعِم بهذا وتسعد ؛ بل وستشكر لى مدى

الدهر أن قد وجدت فيكما أبا وأماً يتمنى مثلهما أحسن
الآبناء وأعقلهم .

« ولن أضيع الآن لحظة أخرى ، بل أبادر فأعدّ المركبة
والجوادين ، ثم أحمل الصديقين الى موضع الحبيبة : واطركما
هناك وحدهما . ليدبرا الأمر بما أوتيا من عقل وحكمة .
وإني أعدكم ، بل أقسم لكم ، أن أنزل بعد هذا على حكمهما .
وسأمتنع عن مقابلة الفتاة حتى تصبح لي خطباً . »

قال هذا وخرج عَجَلًا . وجعل الآخرون يُجمعون
أمرهم ، ويتدبرون الطريق التي يسلكونها في معالجة ذلك
الأمر الخطير .

ولم يُضع هرمن لحظة : بل انطلق الى الأصطبل . حيث
رأى الجوادين ، واقفين هادئين ، وهما يلتمان أحسن الشعير
والدريس التهاماً : فألبس كلا منهما الشكيمة بين الفكين ثم
أمر اللجم من الحلقات : وأحكم وضع السيور الطويلة
العريضة : واقتاد الجوادين إلى فناء الدار ، حيث هيا الخادم
المركبة وأعدّها : فدفع الجوادين برفق إلى عريش المركبة .

وربطهما باحكام الى عَمَدِهَا . وتبوأ مقعد السائق والسوط
فى يده . وسار بالمركبة الى باب الدار ؛ ولم يكد الصديقان
أن يجلسا فى مقعدهما الرحيب ، حتى انطلقت تعدو بهم . ولم
تلك إلا لحظة حتى غادرت الطرق المرصوفة ، وزايلت المدينة
بأسوارها وأبراجها . وقد أخذ هرمن يسوقها تلقاء ذلك
الجسر المعهود ، وهو يركض بها ركضاً ، دون رَيْثٍ ولا
مَهَلٍ ، سواءً كان يجرى صاعداً أم منحدرأ .
ولم يلبث أن لاح له برج القرية ؛ ومن ورائه دورها
المتفرقة تحيط بها الحدائق . عند ذلك أخذ يخفف من غلواء
الخيل ، ويهدئ من سرعتها .

وكان أمام القرية مرج يكسوه بساط من العشب الندى .
تظلل شجرات من الزيزفون ، شاحخة جليلة نبتت فى مواضعها
هذه منذ زمن بعيد ؛ فثبت أصلها فى الثرى ، وامتدت الى السماء
فروعها . وكان هذا المرج ملعباً وملهى لأهل القرية ولما
جاورها من البلاد . وكان فى وسطه بئر قد حفرت بين الدوح
فى أرض منخفضة مطمئة ؛ تنزل إليها بدرج فتلقى مقاعد من

الحجر مصفوفة حول ينبوع يتدفق منه الماء أبدا ، رائقا صافيا ،
وقد أحيط بسور صغير ، بحيث يسهل الاستقاء من الحوض .
استقر رأى هرمن على أن يريح الجوادين في ظل هذا
الدوح ، ففعل ، وقال لصاحبيه : انزلا الآن أيها الصديقان ،
واذهبا كي تعلما أن هذه الفتاة جديرة باليد التي أمد إليها . أما
أنا فما يداخلى في هذا ريب . ولن تنبئاني عنها بجديد . ولو كان
الأمركه يبدى لا نطلقت الى القرية ، وطلبت منها ان تتم
سعادتي بكليات قلائل تفوه بها .

« أما أتما فلن تجدا صعوبة في معرفتها من بين هذه الجماهير .
فمن الصعب أن يكون لغيرها ذلك القوام العالى . ومع هذا
فأنى واصف لكما من ثيابها النقية ما قد يرشدكما إليها : لقد
لبست قرطقا أحمر ، قد نجم من تحته ثدياها . وأحاطت
خصرها بنطاق اسود قد أحكمت شده وجعلت في لبة القميص
ثنايا وطيأت تحيط بجيدها المستدير كاطار بديع . وفى وجهها
البيضاوى تلمحان الصراحة والهدوء . وشعرها مضافور
ذوائب عديدة على اسلاك من الفضة . ومن تحت النطاق
يتدلى مرطها الأزرق ، ذو الثنايا العديدة ويكاد يمس منها حين

تمشى عقيها المليحين .

« لكن هنالك أمر أريد أن أسألكم اياه وألح عليكم في أن تجيباني اليه : وهو ألا تخاطبا الفتاة ، ولا تدعاها تفهم ما تقصدان إليه . بل اكتفيا بسؤال الآخرين ، وأنصتا للذى يقولون . ومتى اجتمع لديكما من الانباء ما يهدى روع الأب والام فارجعا إلى ، لتدبر ما نصنع بعد ذلك .

هذا هو الرأى الذى ارتأيت ونحن سائرون الى هنا . ، بعد أن ختم هرمن كلامه ، انطلق الصديقان الى القرية ، فاذا جماهير الناس قد احتشدت فى الحدائق والدور . وفى مخازن الغلال ، ولهم عجب عظيم وضجيج . وقد اكتظت الطرق بالمركبات بحيث تلاصق العجلة العجلة . فمن رجال تطعم الماشية وهى تخور ، والخيول وهى مربوطة الى المركبات . ومن نساء منهمكات فى تجفيف ما غسلن من الثياب على سياج المنازل أو على الاسوار أو فى أى مكان . الى أطفال يلعبون باللعب فى مياه الجداول .

شق الصديقان فى جهد طريقا وسط هذه المركبات . وجعلا ينظران يميناً ويساراً نظرات المستكشف المستطلع . لعل عيونهما

أن تقع على الفتاة التي وصفت لها . فلم يجد لها شيها بين من ألفيا
من النساء . ولم يلبثا أن بلغا الى موضع اشتد به الزحام ، وقد
اجتمع حول المزكبات رجال يختصمون ، من حولهم نساء يصحن
ويُعلن . واقبل شيخ وقور مسرعا . واقترب من المتخاصمين
فلم يكذبو ويشير اليهم إشارة الأمر حتى هدأت الضوضاء
وساد السكون . فصاح فيهم : « أما كفانا محل بنا من الشقاء حتى
صرنا عاجزين عن ان نتفاهم فيما بيننا ، وان تتسامح ، ونغض
الطرف عما ما قد يرتكبه بعضنا من هفوات ؟ لقد يكون احدكم
وسط السعادة ، ضجرا متبرما ، سريع الغضب ، لكن ألم
يعلمكم وقع النوائب أن تكفوا عن النزاع والخصام ؟ أولى
لكم هنا . ونحن في ديار الغربة ، أن يسع الواحد منكم أخاه ،
وأن تتقاسموا ما بأيديكم من رزق حتى تكونوا موضع العطف
والرعاية . »

فاه الشيخ بهذه الكلمات ، وقد انصت الجميع اليه . ثم
أخذوا في اصلاح مركباتهم ودوابهم ؛ وقد لانت عريكتهم ،
وهذا ثأثرهم .

وسمع القسيس كلام الشيخ ؛ فتبين في وجهه ملامح القاضى

العاقل الرزين، فتقدم اليه وخاطبه في جد قائلًا: «إن الشعب في زمن
 الرخاء يعيش خلى البال. يتغذى بما تنتج أرض سخية واسعة. تخرج
 له الهبات الشهية على مدى الشهور والسنين. هنالك يجرى
 كل شئ وفق المرام، فيحس كل امرئ في نفسه أنه فوق سائر
 الناس فضلًا وعقلًا. وما دامت الأمور تجري في مجراها
 فإن أحزم الناس وأذكاهم لا يلقى من التقدير أكثر مما يلقى سواه.
 » ولكن اذا نزل الشقاء، فاضطربت لوقعه سبل الحياة.
 وخرّبت المنازل والدور، وهلكت الحدايق والزروع. وسبق
 الرجال والنساء من مسكنهم الآمين، وقذف بهم إلى العراء.
 يختلف عليهم نهارٌ قاسٍ وليلٌ خفيف. فهنالك ينظر الناس من
 حولهم ليشحوا عن أوفرهم عقلًا، وأعلاهم رأيًا. الذي
 يستطيع أن يكلمهم، فلا تذهب كلماته أدراج الرياح.
 » قل لي يا والدي! إنك من غير شك القاضى الذى ينحكم
 بين هؤلاء الشريدين، ولهذا استطعت أن تهدئهم من غير
 عناء! أجل وإنى أراك شبيهاً بأولئك القادة، فى العصور
 القديمة، الذين كانوا يقودون رعاياهم الطريفة وسط الصحارى

والفقار (١)، وكأني الآن إنما أخطب يوشع أو موسى . «
 فأجاب القاضي وهو يلقي عليه نظرات حادة جاذة :
 « حقاً إن زماننا هذا يشبه أغرب العصور التي حدثنا عنها
 التاريخ ؛ سواء أكان تاريخ دين أم تاريخ دنيا . وإن الذي
 عاش من الأمس الى اليوم فكأنما عاش عدة سنين ، لكثرة
 ما تعاقب من الحادثات في هذه الفترة القصيرة . أما اذا حاولتُ
 أن أذكر ما قبل ذاك بزمان قصير ؛ فاني يُخيل لي أني بت
 أحمل على كاهلي عبئاً ثقيلاً من السنين . وأعجب أن لم تزل في
 بقية من القوة .

« أجل إتنا نستطيع حقاً أن نقارن بين أنفسنا وبين ذلك
 الشعب (٢) ، الذي لاحت له النار المقدسة في ساعة المحنة .
 فكذلك نحن قد شاهدنا الروح القدس وسط السحاب
 والنيران . »

وكان القسيس يود أن يمضي في حديثه مع القاضي ،

(١) أي مثل موسى عليه السلام حين قاد جموع بني اسرائيل في الصحراء ما بين
 مصر وفلسطين .

(٢) شعب بني اسرائيل

ليستطلع أنباءه وأنباء قومه . فقال له رفيقه همساً : « امض
في حديثك مع القاضي . وسق اليه حديث الفتاة ؛ أما أنا
فسأطوف بالمكان قليلا . باحثاً عنها : ثم أعود اليك بعد أن
أراها . » فأشار القسيس موافقاً : وانطلق الآخرين الأسوار
والحدائق ، مستطلعاً باحثاً .

....

النشيد السادس

كليو^(١) KLIO

(الزمن التاريخ)

العصر

أخذ القسيس يسأل ذلك القاضي ، الغريب الدار ، عما
ناسته الجماعة ، وعن الزمن الذي قضته في هذا التشرّد : فأجابه
الآخر : « إن آلامنا ليست بالشئ الحديث العهد ، فقد شربنا
صاب هذه السنين جميعاً ، وكان أشد المصائب وقعاً علينا أن
رأينا أبهى أمالنا وأحلاها تهدم وتتحطم . ومن ذا الذي
يستطيع أن ينكر أن نفسه أخذت تنمو وتعلو ، وأن صدره
الحر أخذ يخفق خفقاناً أشد طهرأ وصفاء ، حينما أشرقت

(١) في هذا الفصل اشارات الى حوادث الثورة الفرنسية والى ما بحثت من الآمال
في النفوس وما خيبت من الرجال . ولهذا فان اسم كليو إلهة التاريخ ملائم لهذا الفصل
كل الملازمة .

علينا الشمس الجديدة بأشعة براءة تسطع وتلعب . وحينما استهوى مسامعنا الكلام عن حقوق الانسان ، التي هي ملك للناس جميعاً ، وعن الحرية التي تعلو النفس ، وعن مبدأ المساواة المجيد .

« هناك غدا كل يؤمل أن سيحيا حياته لنفسه (١) وكأما تلك السلاسل والأغلال ، التي قيدت بها الأنانية والكسل (٢) الكثير من الأمم ، قد تكسرت أخيراً .. ألم تكن أنظار الشعوب جميعاً متجهة في تلك الأيام المفعمة بالحوادث الى عاصمة العالم (٣) ، التي استحققت هذا اللقب العظيم في ذلك الوقت أكثر مما استحقته في أي عصر آخر ؟ ألم تكن أسماء أولئك الرجال ، الذين كانوا أول من أذاعوا الرسالة ونشروها (٤) ، تضارع أسماء أجل الناس قدراً ، بمن غدا لهم مكان بين النجوم الزاهرة ؟ ثم ألم يكن أثر هذا كله أن بات كل انسان يحس أن قد ارتقى : قلباً وروحاً ولساناً ؟

(١) يحيا من أجل نفسه لا من أجل الملوك والقسس والنبلاء .

(٢) الأنانية والكسل رمز للطبقات الحاكمة التي تسخر الشعب لخدمتها .

(٣) يريد باريس

(٤) أمثال ميرابو ولافايت .

ونحن الجيرة الاقربون (١) كنا أول من اشتعلت نار
 الحماس في نفوسهم . . . من بعد هذا دارت رحا القتال ،
 وجعلت كتائب الفرنسيين تزحف على ديارنا . ولكن كان
 يبدو لنا أنهم مقبلون علينا كأصدقاء . وهكذا ألفيناهم . فلقد
 كانوا جميعا ذوى نفوس عالية . فجعلوا يغرسون بيننا بهمة
 وعزيمة أشجار الحرية الياقة . وأعلنوا أن كلاً له حقوقه المرعية
 وحكومته التي يرضى ويختار . وقد طرب الجميع سرورا ، شبانا
 وكهولا . وجعلت حلقات الرقص تدور من حول الأعلام
 الجديدة . . . وهكذا تمّ لهؤلاء الفرنسيين اللبقيين اكتساب
 قلوب الرجال بهمتهم وعزمتهم ، وقلوب النساء برشاقهم التي
 لا تقاوم ، حتى لقد سهل علينا عبء الحرب على فداخته ، لأن
 الأمل كان يسدّل دون المستقبل ستورا . فلا تقع أبصارنا الا
 على السبل الجديدة التي بين أيدينا .

« لقد تعلم أن الزمن الذي يقضيه العروس وخطبته ،
 يغشيان المراقص والملاعب ، وهما بانتظار يوم العرس ، من
 أسعد الازمنة وأرغدها ؛ لكن كان أسعد منه ألف مرة ذلك

(١) سكان الاقاليم الألمانية الملاصقة لفرنسا الواقعة غرب نهر الرين .

الزمن ، الذى كان المرء يرى فيه أن أقصى ما كان يطمح إليه
بصره ، بات قريب المنال جدا . فهناك انحلت عقده الألسنة ،
وأطلق الشيوخ والشبان للقول العنان ، معبرين عن كل فكر
سام وإحساس كريم (١) .

« لكن لم تلبث السماء أن غشيتها السحب ، ونهض جنس
فاسد ليقبض على زمام الحكم (٢) ، وهو عاجز عن أن يفعل
الخير ، فأخذ أفرادهم يذبح بعضهم بعضا ، ويستبدون
بجيرانهم وإخوانهم . وبعثوا إلينا شرذمة من الأنايين الجشعين .
فأكب كبارؤهم على سلبنا كل شيء يستحق السلب ، وأكب
صغراؤهم على النهب ، فلم يدعوا حقيرا أو تافها الا استولوا
عليه . وما كان خوفهم إلا أن يسرفوا فلا يتركوا شيئا إلى الغد .
« فلم يمض زمن طويل حتى حل بالناس الشقاء ، وفى كل
يوم يشتد بنا الظلم ويزداد . وكانوا فى عنفوان عزهم ونصرهم ،
فلم نجد من يتصت إلى استغاثتنا . فاستولى الغيظ والغضب

(١) إشارة إلى الذين تنصروا بدمج الثورة الفرنسية فى أول عهدنا من شراء

الألمان أمثال كلوبستك Klopstock

(٢) إشارة إلى جماعة الباقية .

حتى على أعذب الناس روحا . واقسم الكل ليشارن لما نزل
 بالبلاد من العار ، ولتلك الآمال التي خابت خيبة مضاعفة .
 وكان الجده حاييف الألمان . فعاد الفرنسيون وارتدوا متقهقرين .
 عند ذلك جعلنا ندرك حقيقة أهوال الحروب . فان الجيش
 الظافر المنتصر قد يبدى شيئا من الكرم والمجاملة ، أو على
 الأقل ، يتظاهر بذلك . فلا يريد أن ينطش بالذين ظفر بهم ؛
 بل يفضل أن يبقى عليهم . وأن يستخدمهم كل يوم فينتفع
 بهم وبما ملكت أيديهم . أما المنهزم الهارب فلا يعرف شرعاً
 ولا عرفاً ، أقصى بغيته أن ينجو من الموت ، فهو يلتهم كل
 ما يقع في يديه من غير تدبر ولا تبصر . وتطيش أحلامه
 ويدفعه اليأس الى ارتكاب كل اثم . فلا يرى لشيء قدسا
 ولا حرمة . بل يسلب كل ما يقع تحت بصره . وتدفعه الشهوة
 الوحشية لأن ينقض على النساء ، فتقلب لذاته فظاغة وإجراما
 ويبصر الموت ماثلا أمامه في كل مكان ، فيعيش لحظاته
 الأخيرة عيشة الوحوش الضارية . يسره أن يرى الدماء وأن
 يسمع أنين المعذنين ..

« هنالك جاشت برجالنا مراجل الغضب ، وأرادوا أن

يثأروا لما فقدوه وأن يدافعوا عما بقي . فحمل الجميع أسلحتهم
وقد ازدادت شجاعتهم لما رأوه من سرعة فرار الهارين ،
ومن وجوههم الشاحبة ، ونظراتهم الفزع ، فجعل ناقوس
الحرب يدق دقات متصلة لا تنقطع . ولم يهدى من ثورة
غضبهم خوف الأخطار التي هم مقبلون عليها . ففي لمحة الطرف
انقلبت آلات الزراعة إلى أداة حرب ، فاذا الأمشاط والمناجل
تقطر نجيعا ، واذا الأعداء تتساقط أشلاؤهم بلا راحة ولا
رحمة . فأما الشجعان فكانوا يفتكون بهم جهاراً : وأما الجبناء
فيقتلون غيلة وخلسة . إن لأرجو ألا أرى بنى الانسان في
مثل تلك الحال من الفوضى والانحطاط مرة أخرى : وَلَمَنْظَرُ
الوحش الضارى خير من منظرهم .

« فعلام إذن كل هذا الكلام عن الحرية كما ثما الناس
قادرون حقا أن يحكموا أنفسهم ؟ انهم لا يكادون أن يُرعى
لهم العنان ، وتزول من أمامهم العقبات . حتى تظهر فيهم الغرائز
الدينية ، ويختفى العدل والانصاف في الزوايا والأركان . »
فقال القسيس : « أيها الرجل الجليل ! لست بلائلك على
إنكارك لبنى الانسان ، بعد الذى عانيته من شرورهم ، وما

ارتكبه من تدمير وتخريب . على أنك لو ألقيت نظرة أخرى
على تلك الأيام الحزينة ، فإني أجد فيها من غير شك كثيرا
من صالح الأمور ؛ وكثيرا من جليل المشاعر ؛ التي كانت
كامنة في أعماق القلوب حتى أثارها وقع الخطوب . فاذا الشقاء
الداهم والخطر المحقق يظهران للإنسان في صورة الملك ،
وإذا هو للآخرين بمثابة إله يرعاهم ويحميهم .

فتبسم الشيخ القاضي ضاحكا وقال : إنك تذكرني تذكر
الحكيم العاقل : كما يذكر صاحب دار اشتعلت بها النيران
فدمرتها ، فيذكره بما فيها من الذهب والفضة ، مما قد أذابتها
النار ، ولبث مبعثرا بين أنقاض الدار . وفي الحق إنه لنزول
يسير ، لكنه على قلته ثمين . فيحفر المسكين باحثا عنه ، ويفرح
لما قد يجده منه . وأنا كذلك أرجع بأفكاري مسرورا إلى
تلك الأعمال الطيبة القليلة ، التي لم تزل تعيها الذاكرة .

أجل لست بمُنكر أنى شاهدت الذين بينهم عداوة ينسون
عداوتهم ، كي يتعاونوا على انقاذ المدينة من برائن الشقاء .
ورأيت كيف تنهض الصداقة وحب الأبناء والآباء فتأتي بما
قد يعد ضربا من المحال . وأبصرت كيف ينقلب الشاب

رجلا في لمحّة الطرف ، والشيخ اليَقَن يحول قى يافعا .
بل ورأيت الطفل يعود شابا ، وذلك الجنس ، الذي أَلَفْنَا أن
ننعتّه بالضعف ، قد راح ييدى من البسالة والبأس ما يثير
الاعجاب .

«ولأقص عليك أولا ذلك العمل الجميل ، الذي قامت به
فتاة كريمة من خيرة العذارى : تخلفت هذه الفتاة في مزرعة
كبيرة ومعها كثير من الفتيات . وقد ذهب الرجال جميعا
لمحاربة الأعداء . وبينما هن كذلك أغارت على المزرعة
شرذمة من أراذل الناس . فتهبوا المزرعة ثم دخلوا على
النساء الدار . فرأوا تلك الحسنة وقوامها المعتدل ، والفتيات
الأخريات ، وهن أحق بأن يدعّين طفلات . فتملكتهم
الشهوة الوحشية ، واندفعوا يريدون مهاجمة الصغيرات
وهن يرتعدن فرقا ، والغادة الباسلة . لكنها لم تلبث أن انتزعت
من جانب أحدهم سيفا وأجهزت عليه بضربه عنيفة فخر
تحت قدمها مضرجا بدمائه . . ثم لم تزل تضربهم ضربات
الرجل القوى حتى كفت أخواتها شرهم ؛ ولذا اللصوص
بالهرب ؛ بعد أن جرحت منهم أربعة . بعد ذلك أغلقت الدار .

وبقيت والسلاح في يدها تنتظر المدد .

حين سمع القسيس هذا الأ طراء لتلك الفتاة ، داخل قلبه الأمل من أجل صديقه . وهم بالسؤال عن مصيرها ، وعمّا اذا كانت وسط هذا الجمع الغفير من اللاجئين . لكن في تلك اللحظة دخل الصيدلى مسرعا ، وجذب القسيس من رداءه وقال له همساً : « قد عرفت الفتاة بعد لآي ، من بين مئات من النساء . وهى كما وصفت لنا تماما . فعمال معى كى تراها رأى العين . وليصحبنا هذا القاضى لنستطلع منه بقية أخبارها . » والتفتا فاذا القاضى قد استدعاه قومه ليستفتوه فى شئونهم ويهتدوا بهديه .

وبرغم هذا سار القسيس وراء الصيدلى حتى بلغا إلى فجوة فى السياج . فقال هذا وهو يشير بيده : « أنظر هاهى الفتاة 1 سرعان ما عرفت كيف تلف المولود لفأ محكماً . وأنا أذكر تماماً القطن القديم . وغطاء الوسادة الأزرق . وهذا كله مما كان فى حقبة هرمن ، وقد أحسنت إذ أحكمت تحويل تلك الهدايا بسرعة إلى حالتها الجديدة . وهذه دلائل على الفتاة لا تقبل الشك . والصفات الأخرى واضحة أيضاً كل

الوضوح . فهناك القرطق الأحمر ، يستر صدراً قد نجم ، وهالك
النطاق الأسود قد أحكمت عقده حول خصرها . وقد جعلت
في لبة القميص ثانياً وطيات بديعة تحيط بجيدها المستدير
كأطار جميل . وفي وجهها اليبضاوى تلمح الصراحة والهدوء
وشعرها مضفور صفائر عديدة على أسلاك من الفضة . وبرغم
أنها جالسة فأننا نستطيع أن تبين قدها الممشوق ، وهو ذامرطها
الأزرق ، ذو الثنايا العديدة ، يلفها من خصرها الى عقيها
المستديرين .

هذه هي من غير شك ، فتعال نستفسر عنها لنعلم هل هي
ذات فضل وفضيلة وهل تحسن إدارة المنزل . »

فجعل القسيس يختبر الفتاة بثاقب نظره . ثم قال :
« لعمري ليس بعجيب أن قد خلبت الفتى وسحرته . فإن عين
الناقد الخبير لا تقع منها إلا على كل ما يعجب : سعيدٌ من منحته
الطبيعة الجمال الكامل . فبات محبوباً حيثما نزل ، ولن يكون
غريباً ، مهما نبت به الدار . إذ يود الكل أن يقترب منه ،
وأن يلبث بقربه زمناً طويلاً . ولئن صاحب جمال الخلق
هذا حسن الخلق ، فاني أؤكد لك أن فتانا هرمن قد أصاب

عروساً ستملاً أيام حياته سعادةً ونعيماً . وستقف مخلصاً
وفية الى جانبه في كل حين . وأكبر ظني أن هذا الجسم
الكامل لا ينطوي إلا على روح طاهرة . وهذا الشباب
القوى سيفضي على مدى السنين إلى شيخوخة سعيدة . »

فأجاب الصيدلي وهو يمعن في التفكير : « رغم هذا ،
كثيراً ما يخذع المظهر . وأنا لا أريد أن أثق بما قد يبدو للعين .
وكثيراً ما جربت صحة المثل القائل : « لا تركز الى صديقك
الجديد كل الركون قبل أن تلتق وإياه صاعاً من الملح (١) .
فالزمن وحده كفيل أن يريك مبلغ صداقته ، ومنزلتك .
عنده . دعنا إذن نستطلع أمرها من أناس صالحين يعرفونها ،
ويستطيعون أن يقصوا علينا من سيرتها شيئاً . »

فقال القسيس : « وأنا أيضاً أفضل سلوك طريق الحذر ،
فنحن لا نخطب الفتاة لنفسنا ، واختيار فتاة من أجل صديق
أمر يتطلب التروي . »

ثم انطلقا نحو القاضي الهمام ، وكان يسير تلقاءهم ،
منشغلاً بما لديه من الأعمال . فأقبل عليه القسيس العاقل ،

(١) كناية عن تجربته في الشدة .

وتكلم اليه محترساً . فقال : « إننا رأينا في الحديقة المجاورة فتاة جالسة تحت شجرة تفاح ، تصنع لطفل رضيع ثياباً من قطعة قطن قديمة لعلها أهديت اليها . وقد أعجبنا قوامها المعتدل وما يبدو عليها من الجرأة والبسالة ؟ فحدثنا بما تعلمه عنها . وما سألناك إلا عن نية طيبة . »

فتقدم القاضي قليلا لينظر الى الحديقة ثم قال : « إنني عرفتك أمر هذه الفتاة من قبل ، حين قصصت عليك ذلك العمل المجيد الذي قامت به هذه العذراء بعينها . حين استلكت السيف ودافعت عن نفسها وعن صواحبها . أجل هذه هي . لا تكاد تلقى عليها نظرة حتى ترى ما وهبتها الطبيعة من قوة . وهي على قوة جسمها طيبة القلب . فقد كانت تعول شيخا هزما من أقاربها ، فلم تزل تعنى بأمره حتى تخرمته المنون وقد أودى به حزنه على المدينة ، وما نزل بها من البلاء وما يتهدد ثروته من الأخطار .

« وكذلك قابلت بهدوء وجلد كارثة أخرى نزلت بها إذ فقدت خطيبها وهو قتي ذو إباء وشمم . أشعلت في نفسه نار الحماسة من أجل المبادئ السامية الأولى ، وأراد أن يجاهد

بنفسه في سبيل الحرية . فذهب الى باريس . ولم يلبث هناك طويلا حتى قتل قتلة شنيعة . وهو يقاوم الاستبداد والدسائس كما كان يفعل في بلده . »

فلما آتم القاضي حديثه شكره الصديقان ، واستأذناه في الانصراف ، وأخرج رجل الدين قطعة من الذهب (وقد انفق منذ سويغات كل ما بالكيس من قطع الفضة ، اذ كان يعطى جماهير اللاجئين كلما مروا به) وقدمها الى القاضي وقال : « تفضل بتقسيم هذا الشيء الزهيد بين المحتاجين ، وبارك الله في هذه الهبة ! » .

فأبى القاضي أن يأخذها منه وقال : « لقد استطعنا أن نتجو بشيء من النقود وبكثير من الثياب والامتعة ، وانى لآمل أن نرجع الى أوطاننا ، قبل أن ينفد ما بأيدينا . »

لكن القسيس أجابه وهو يضع القطعة في يده : « أجدر بكل انسان في هذا الزمن ألا يحجم عن العطاء ، وأجدر بكل ألا يرد ما يُقدَّمُ اليه عن سماحة . فما يدرى أحد في يده اليوم شيء ، الى متى يبقى الذي بيده . وما يدرى أحد اليوم كم يطول به السير والطواف في ديار الغرب ، مقصّي عن المزارع

والخدائق التي كانت تؤويه وتغذيه . »

• وقال الصيدلي ، وكأتما أهمية الأمر : « أجل لعمرى ولو كان في جيبى نقود لمنحتك إياها : كبيرة وصغيرة ؛ إذ لا شك عندي أن في عشيرتك من هم في حاجة إليها . ومع هذا فاني لن أتركك تمضي من غير هبة أهيك إياها ، حتى ترى نيتي الطيبة ، ولو أن الصنيع دون النية بكثير . »

ثم أخرج من جيبه كيسا من الجلد المطرز كان يحفظ فيه مالديه من التبغ ، وجعل يفتحه بتدقيق وتمهل . فإذا فيه ما يكفي لملء (بيبات) قلائل . فقدمه الى القاضى وهو يقول : « إن الهبة لعمرى قليلة . » فرد الآخر بأن المسافر يرحب أبدا بما يقدم اليه من جيد التبغ .

فأخذ الصيدلي يمدح تبغه ويثنى عليه . لكن القسيس لم يدعه يطيل ، بل اجتذبه وابتعدا عن القاضى . وقال له : « أسرع بنا فان الفتى ينتظرنا في قلق ، ويجب أن نسمعه النبأ السار بأسرع ما يمكن . »

فانطلقا مسرعين حتى اذا كانا على مقربة من الشاب ، ألفياه متكئا على مركبته تحت شجرة زيزفون ، وقد جعلت الخيل

تضرب العشب بسنابكها . وهو ممسك بلجمها وممعن في التفكير .
 وكان ينظر أمامه بعيداً ، فلم يحس قدوم الصديقين ، حتى نادياه
 حين اقتربا ، وأشارا اليه اشارات سارة . وكان الصيدلى قد
 شرع يخاطبه من بعيد . ولكنها لم يلبثا أن وصلا اليه . وعند
 ذلك أمسك القسيس بيد الفتى وسبق زميله الى الكلام فقال :
 « سعد جدك أيها الفتى ! إن عينك الطاهرة وقلبك الخالص
 قد أحسنا الاختيار . فلتسعد ولتسعد بك حليلة شبابك . وهى
 لعمرى جديرة بك حقاً . فتعال اذن وأعد المركبة ، ولتعد الى
 القرية راكبين ، وهناك فلتخطبها ثم نذهب بها الى الدار . »
 كان الفتى منصتاً الى كلمات الرسول ، وبرغم أنها عبارات
 سماوية مقدسة وباعثة للأمل ، لم تبد على وجهه علامات
 السرور ، بل تنهد من أعماق صدره وقال : « لقد أتينا إلى
 هنا على عجل ، ولكنى أخشى أن سنركب الى دارنا فى شيء
 من الفشل ، فراجع متباطئين . لقد أخذت المعلوم تملأ قلبي
 وأنا انتظر كما هاهنا . وأخذت حوز على اليأس والقلق وكل ما يضرني
 أفقده المحبين . فهل تحسبان أن مجرد ذهابنا إلى هناك كافٍ لأن
 تقبل الفتاة علينا وتتبعنا ، لأننا نحن ذوو يسار ، أما هي فتعاني الفاقة

والتشرد . لكن الفقر نفسه . ان أصاب غير أهله . يعث
فى النفس الشمم والكبرياء . وهذه الفتاة جمة النشاط . وقد
تدرعت بالثقاعة . وبهذين السلاحين يصبح العالم فى قبضة يدها .
ثم أحسبان أن يكون لامرأة مثل هذا الجمال والكمال :
فلا يفتن بها الشباب ويهيم بها ؟ أتظنان أنها أغلقت قلبها حتى
الساعة . فلم ينفذ اليه حبٌ بعد ؟ أولى لنا إذن ألا نركب الى
هناك . بل نعود ساحبين ثياب الخجل . راكبين على مهل الى
الدار . فانى لأخشى أن بعض الفتيان قد استحوذ على قلبها
ويدها . وأنها أقسمت له يمين الاخلاص . فأى اضطراب
سيعرونى اذا وقفت بين يديها فى مثل تلك الحال ؟

هم القسيس أن ينطق بكلمات يسايه بها ، لكن الصيدلى
بثرثرته المعهودة سبقه الى الكلام فقال : « فى الأيام الخالية
لم يكن هذا الشئ مما يحيرنا . اذ كان لكل أمر ذى خطر نظامه
وطريقته . فبعد أن يتقى الوالدان عروسا لفتاهما . يرسلان
سرا فى طلب أحد أصدقاء الأسرة . ويبعثان به الى والدى
العروس ليقوم بأمر الخطبة . فيبادر هذا الصديق ، وقد أخذ
زينته كاملة فى يوم الأحد ، وينتظر الى ما بعد الغداء بقليل ،

ثم يزور ذلك الرجل الجليل في داره . وهناك يتحدث إليه
بعبارات ودية عامة ، وهو يعلم كيف يحوّل مجرى الحديث
متى شاء ، فبعد كثير من اللف والدوران يحجى ذكر الفتاة
فيثنى عليها ، ثم يثنى على الأب . وعلى الأسرة التي أرسلته
اليوم . ثم تبدر منه كلمة حكيمة تشير الى الموضوع ؛ ويلمح السفير
العاجل ماهنالك من حسن نية فيأخذ في الشرح والايضاح .
واذا افترضنا أنه لم يلق نجاحاً ولا توفيقاً ، فلن يكون في هذا
غضاضة . أما اذا تكلل مسعاه بالفوز ، فسيصبح لهذا الوسيط
المكان الأول في كل حفلة للأسرة ، لأن العروسين يذكران
مدى العمر أن أول من عقد الرباط هو تلك اليد الماهرة :
يد الوسيط .

« أما الآن فان هذا أصبح كسائر العادات الصالحة ، يعد
خارجاً عن المألوف . وأصبح كل وسيط نفسه ، فاذا رفضته
العروس ، فليتناول فشله بيده ، وليقف موقف المضطرب
الحائر أمام الفتاة . »

فقال الفتى ، ولم يسمع من كلام الصيدلي الا القليل : بل
كان يفكر حتى استقر رأيه على قرار حاسم : « مهما يكن

من أمر . فاني ذاهب بنفسى لأعلم من فم الفتاة مصيبي
وما لى . فان لى بهائقة قلبا وضع مثلها رجل فى امرأة . وأنا
أعلم علم اليقين أن كل ماتقوله حسن وحكيم . ولئن قدر لى
أن سيكون هذا اللقاء الأخير ، فاني أودرغم هذا أن أقابل
مرة أخرى تلك النظرات الصريحة من تلك العيون السوداء ؛
واذا لم يتح لى أن أضمها الى قلبى . فلا أقل من أن أشاهد
مرة أخرى ذلك الصدر وتلك الأعطاف ، التى يشتهى ذراعاى
تطويقها . أجل أريد أن أرى مرة أخرى ذلك الفم ، الذى
تسعدنى منه القبله وكلمه (نعم) مدى الحياه . والذى تشقىنى
منه كلمه (لا) مدى الحياه ،

» فدعانى إذن وحدى ! وما من داع إلى انتظارى .
بل ارجعا الساعة الى والدوالوالده ، كى يعلمنا منكما أن
ابنهما لم يخطئ . وأن الفتاة جديرة بكل خير . فاتركانى وحدى
وسأعود مختصرا الطريق ، سالكا ذلك الممشى المنبسط
فوق الكثيب إلى شجرة الكمثرى ، ثم أمر من وسط الكرمة
حتى أصل الى دارنا .

» فهل يتاح لى أن أرجع مسرعا ومعى الحبيبة؟ أم أعود

فريدا وحيدا أجْرُ رَجُلَيَّ جرا في تلك الطريق ، ثم أدخل
الدار التي لن أدخلها منشرح الصدر أبدا ؟ . . .
قال هذا وناول اللجام القسيس . فأمسكه هذا إمساك
الخير ، كاجأ جماح الجوادين ، وقد علا أشداقها الزبد . ثم
ضعد المركبة مسرعا ، وجلس في مكان السائق .
لكن زفيقه الحازم ، المتبصر في العواقب ، جعل يتردد
ويقول : « إني أيها الصديق أأتمنك على نفسى وروحي وعقلي ،
عن سرور ورضى . ولكن إخال أن الجسد والعظام ليست
في مأمن من عاديّات الزمان ، اذا كانت اليد المقدسة هي
القابضة على هذه اللجُمِ الدنيوية الفانية . »
فقال له الآخر ، وهو يحاوره مبتسما : « ادخل الى المركبة
بسلام ، وأتمنّ على جسدك وروحك على السواء ! كن مطمئنا ،
فان هذه اليد ألفت منذ عهد بعيد أن تقبض على اللجم ، والعين
قد مرّنت على سلوك أقوم الطرق . وقد تعلمنا في
استراسبورغ كيف نسوق المركبات ، حين ذهبنا إلى هناك في صحبة
ذلك البارون الصغير . (١) وفي كل يوم كنت أتولى قيادة

(١) كثيرا ما يبدأ القسس حياتهم — خصوصا في الزمن الذي نحن بصدده —
كمؤدّين لأبناء الأشراف

المركة . فتمرق بنا من وسط الباب الكبير المرجع للصدى ،
وتعدو بنا في طريق تربة ، الى المروج ، والى الغابات البعيدة .
وسط الجموع الغفيرة من الناس الذين لا عمل لهم غير التنزه
طول النهار . »

عند ذلك تجلد الصيدلى ، بعض الشيء . فصعد المركبة .
وجلس فيها جلسة الرجل الحازم المتأهب فى كل لحظة
للوثوب إلى الخارج .

وانطلق الجوادان تنقاه الدار . وبهما الى الاصطبل شوق .
فكان يتصاعد من تحت سنابكهما سحب من العُشِيرِ المثار .
وقد وقف الفتى طويلا ، يحدق فى الغبار إذ يصعد . ثم
يتفرق فى الهواء ذرة ذرة . وهو تائه العقل حائر اللب .
لا يفكر فى شيء .

....

النشيد السابع

ايراتو ERATO

(الهة الغزل والفسيب)

دروتيه

لقد يقف ابن السيل عند الغروب ، ينعم النظر في
ذكاء ، ثم يلقي عليها وهي آخذة في الاختفاء بسرعة نظرة
عجلى ، فلا يزال يرى صورتها تهتز وسط الأدغال القائمة .
وفوق الجنادل والصخور ؛ وحيثما اتجهت نظراته . فثم وجهها
يلبع مهتزا في ألوان بديعة . . . كذلك كان هرمن . فحيثما
نظر رأى صورة الغانية الفتاة تمر أمامه على مهل . وكأئما
تسير في الممر الضيق الذي يخترق مزرعة القمح .
لم يلبث أن أيقظ نفسه بعنف من هذه الرؤيا التي أدهشته .
ثم أدار وجهه نحو القرية ، فازدادت دهشته . إذ رأى القوام

العالى لتلك الفتاة مقبلا نحوه . فأنعم النظر ، ورأى أن هذا لم يكن وهما . وأن هذه هى حقا . قد اقبلت وهى تحمل فى يديها جرتين : قد أمكست بقبضتيهما . وجعلت كبراهما فى اليمين والصغرى فى اليسار . وهى تمشى بجذ ونشاط نحو الينبوع .

تقدم هر من نحوها مسرورا ؛ وقد بعث منظرها فى قلبه القوة والعزم . وخاطبها ، وقد تولاهاشىء من الدهشة ، فقال : « هاأنذا ألقاك مرة أخرى ، أيتها الغادة الباسلة ، دائبة على عمل جديد تساعد به العاجزين وتحيين به النفوس البائسة . لكن حدثينى ! كيف قصدت وحدك الى هذا الينبوع على بعده . وأكثر من بالقرية يكتفون بما هنا لك من الماء ؟ ولوان هذا الماء حسن المذاق . مفضل على سواه ؛ وكأنى بك ستحمليه الى تلك المريضة . التى أنقذتها بما بذلت لها من رعاية وعناية . فحيته الفتاة أحسن تحية ، وقالت : « لقد جوزيتُ أحسن الجزاء على أن قطعتُ كل هذا الطريق الى الينبوع ، بأن لاقيت الرجل الكريم ، الذى أمطر علينا الهبات ؛ وإن النفس لتسر لمراى المحسن ، كما يسرها منظر الاحسان . فتغال وانظر

بنفسك إلى الذين نَعِمُوا بما منحتهم ، وتلقَ منهم ، على صنيعك ، أطيب الحمد والثناء .

وإنك لترانى وقد قطعت هذا الطريق ، لكي أعترف من هذا ينبوع الذى يتدفق منه الماء صافياً طهوراً . فما ذلك إلا لأن الناس باهمالهم قد كدروا كل ما بالقرية من ماء . وتركوا الخيل والثيران تخوض فى ينبوع الذى يسقى القرية وأهلها . وكذلك لو ثوا جميع الأحواض بما غسلوا وما رخصوا فيها . حتى لم تعد هنالك بئر واحدة نظيفة . لأن كل فرد لا يعنيه إلا أمر نفسه ، ويريد أن يقضى حاجته بسرعة ، من غير أن يكثرث لحاجات الناس . ،

ولم تكد تتم حديثها ، حتى اخذت تنزل الدرجات وهرمن الى جانبها ؛ ثم جلسا ، كلاهما ، على الجدار الصغير حول ينبوع . وانحنى فوق الماء لتعترف منه . وأمسك هو بالجرة الأخرى ومال فوق الحوض ليغترف . فأبصر صورتيهما ، وقد ارتسمتا فى زرقة السماء الصافية المنعكسة على صفحة الماء . وهنالك نظر إليها ونظرت إليه ، وحياتها وحيته . ، فى تلك المرأة الصافية المصقولة .

وقال لها ، وقد سروطرب ، : « ناوليني شربة ! ، فأمسكت
له جرتها حتى شرب . ثم استراحا قليلا وقد اتكا كل منهما على
جرة : وقالت هي للصديق : « انى أراك هنا ، بعيدا عن
الموضع الذى قابلتك فيه ، بلا خيل ولا مركبة . فكيف
وصلت إلى هذا المكان ؟ »

فأطرق هرمن مفكرا . ثم رفع رأسه ، وجعل يحرق في
عينها ، بنظرات الصديق المخلص : فأحس كأنما قد عاد إلى
قلبه الهدوء والطمأنينة . ولكن كان يرى من المستحيل أن
يحدثها حديث الهوى . إذ لم يلح في نظراتها الحب ، بل العقل
والروية يأمرانه أن يتكلم بعقل وروية . فلك زمام نفسه
بسرعة . وقال : « دعيني أحدثك وأجيبك صراحة على سؤالك :
إنى جئت إلى هنا من أجلك أنت . ولست أرى داعيا لأن أخفى
عنك هذا . إنى أعيش سعيدا مع والدين برّين ، أعاونهما في
شئون الدار ، وفي إدارة العقار . إذ ليس لهم من الأبناء غيرى .
وأعمالنا متعددة الشكول ، متشعبة النواحي . وإكبر ما أعنى
به المزرعة ، أما والدى فيدير المنزل بمجد وهمة . والوالدة
النشيطة تعمل أبدا وتدأب في سائر مرافق الحياة . وما إخالك

الا قد مارست هذه الأعمال جميعا ، وعرفت ماتسيه الخادما
لربة الدار من عناء ، بالحياة حينا وبالرعاية أحيانا . فضطّر
لأن تبدل خادما مكان خادم . وهى بهذا إنما تبدل نقصا مكان
نقص ، وعبوبا جديدة مكان العيوب القديمة . لهذا كانت أسمى
منذ عهد بعيد تمنى أن ترى فى الدار فتاة تعاونها لا باليدين
فحسب ، بل بالقلب والضمير ايضا . فتكون لها عوضا من
ابنتها التى سلبتها المنون إياها من قبل .

« واليوم وقد أبصرتك إلى جانب المركبة ، ورأيت
الساعدين القويين . والصحة البادية فى كل جراحة من الجوارح
وسمعت منك الألفاظ الممتلئة عقلا ، تملكنى الدهشة والاعجاب
وعدت مسرعا إلى الدار . وجعلت أمدح هذه الغريبة بالذى
تستحقه أمام الوالدين والأصدقاء . والآن عدت إليك لأحدثك
بالذى يغونه منك . . اغفرى لى ترددى فى الكلام وحيرتى . ،
فقلت له : « لاتخشن ضميرا فى أن تتم حديثك ، وليس
فى الذى ستقوله ما يشينى . وإنى لم أحس . وأنا أصغى إليك
غير عاطفة الشكر ، فقل بصراحة ما تريد أن تقوله . فليس فيه
ما يزعجنى . إنك تريد أن تدعونى لأكون لوالديك خادما

أمنية ، كي أعني بشئون منزلكم ، الذى أعددتموه أحسن اعداد .
وأنت تظن أنك ستجد فى فتاة جادة ، تقبل على العمل باسمه
الشجر ، ليس فى طبعها خشونة ولا جحود . . لقد كنت فى
عبارتك موجزاً . وسيكون ردى عليها موجزاً . أجل إني قابلة
أن أذهب وإياك وأن ألبى نداء القدر . وقد أتممت ما على هنا
من واجبات . فأسلمت النفساء إلى أهلها . وكان سرورهم
بالنجاه لاحدله . وأكثر الشريدين قد التقوا بذويهم ؛
والآخرون سيتقابلون قريباً : وهم جميعاً يحسبون أن سيعودون
إلى أوطانهم بعد أيام قلائل ؛ وهذا دأب الطريدين إذ يغربون
بأنفسهم . أما أنا فلا أخدع نفسى بالأمانى الكذاب فى هذه الأيام
العصية ، التى تنذرنا بما هو أشد منها هولاً . إن الروابط التى
تصل بين أواصر العالم قد انحلت عراها . فأى قوة تستطيع
أن توثقها مرة أخرى . اللهم إلا قوة الشقاء الجسيم ، الذى
يتهددنا ويوشك أن يحل بنا ؟

ولئن أتيح لى أن أكون خادماً فى بيت رجل جليل ، وأن
أعول نفسى من هذا السيل ، فى رعاية امرأة طيبة صالحة .
فانى أقبل هذا عن رضى وارتياح . والفتاة التى تقضى أيامها

فى التنقل من أرض إلى أرض ، يكثّر حولها القيل والقال .
أجل إنى ذاهبة معك ، فأملنى حتى أحمل الجرتين الى
الأصدقاء ، وتعال لكى تراهم حين يستقبلوننا . »

أصغى الفتى مسرورا إلى هذا القرار الذى قطعه الغادة
عن رضى وارتياح ، وجعل يسأل نفسه هل يفضى إليها
بالحقيقة الآن ؛ فبداله أن الأوفق أن يتركها وما توهمت .
ثم يذهب بها الى منزله ، فلا يحدثها حديث الحب إلا هناك .
ثم لاحظ فى شىء من الأسف أن باصبعها خاتما من الذهب .
فلم يحرك كلاما ، وأكتفى بالانصات لما تقول .

فقالت له : « لنرجع أدراجنا الآن ! فان الناس
يوجهون قارس اللوم إلى الفتيات ، اللواتى يطلن المكث عند
البر ، مع ان الكلام لدى الينبوع المتدفق من أحب الأشياء
الى النفس . »

عند ذلك نهضا واقفين ، ونظرا مرة أخرى فى الماء .
فبعثت هذه النظرة فى كل منهما احساسا رقيقا ، وشعورا عميقا .
ثم حملت الجرتين ممسكة بقبضتيهما . وصعدت الدرج
وهرمن على أثرها . وقد طلب إليها أن تناوله إحدى الجرتين كى

يقاسمها العبء الذى تحمله ، فقالت : « دعمها لى . فان فى حمل
الاثنتين معا ، ما يبعث على اتران الجسم ، فلا يتعبنى حملها .
ويجب أن أذكر ان السيد الذى سيكون لى أمرا ، أولى به
ألا يقوم الآن بخدمتى . وفيم تنظر إلى هذه النظرات الحزينة ؟
كأن الذى أنا صائرة اليه أمر يبعث الحزن والهموم . ان واجب
المرأة يقضى عليها أن تتعلم كيف تخدم ، كى تؤدى وظيفتها
فى الحياة . فبالخدمة وحدها تستطيع المرأة ، مهما طال المدى ،
أن تنال السيادة التى هى بها جديرة وحقيقة . فتصبح لها فى
دارها الكلمة العليا .

« وهكذا تأخذ الأخت مبكرة فى خدمة شقيقها وفى خدمة
والديها . فحياتها أبدا حركة دائمة : جيئة وذهاب ، ورفع
ووضع ، وإعداد أشياء وإجهاد للنفس من أجل الغير . . وما
أسعدها حين تعتاد نفسها كل هذا . فلا ترى فى شيء غضاضة .
ولا ترهد فى عمل مهما كان حقيرا تافها . وسيان لديها أفى
ساعات الليل تعمل أم فى ساعات النهار . . . أجل ما أسعدها
إذ تصبح وقد نسيت نفسها تماما ، فلا تحيا إلا من أجل الآخرين !
وما أحوجها إلى كل هذه الفضائل حين تغدو والدة : حين

يوقظ الطفل الرضيع أمه ، طالبا الغذاء ، وهى بعد ضعيفة هزيلة ، وما كفاهاما تعاني من ألم ، حتى تضطلع بهموم جديدة . ولن يستطيع عشرون رجلا أن ينهضوا بهذا العبء ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . وفي الحق ان هذا ليس من شأنهم ، ولكن لا أقل من أن يعترفوا للمرأة بالفضل ، ويقابلوه بالشكر .

بهذه الكلمات نطقت الغادة ، مخاطبة رفيقها ، وهولا ينبس بكلمة . وقد اجتازا الحديقة ووصلا إلى فناء الجرن . حيث اضطجعت النفساء ، يصحبها الشقيقتان اللتان نجتا من الهلاك . وقد دخلتا عليها في تلك اللحظة فاذا هما ملكان طاهران ودخل من الناحية الأخرى في الوقت نفسه ذلك القاضى الوقور . ممسكا يده طفلين قديشت من لقاءهما أمهما المسكينة ، واستطاع الشيخ الآن أن يجدهما وسط هذه الجماهير المضطربة . وقد وثبا مسرورين ليحيا أمهما الراقدة . ويحيا الطفل الرضيع الذى سيغدو لهما رفيقا يلاعبانه ويداعبانه . ثم وثبا نحو دروته وسلبا تسليم الصديق المتحمس . وطلبا منها خبزا وثمرأ وماء ليشربا ؛ فأمسكت الجرة وناولتهما الماء فشرب الاطفال ،

وسقت النفساء وأختها ، وسقت القاضى . وقد شربوا جميعا
وارتووا ، وأثنوا على الماء القراح ، الذى طاب مذاقا ، وفيه
غذاء وشفاء .

وعند ذلك قالت الغادة وهى تنظر اليهم نظرات جد :
« أيها الأصدقاء ! إني لأخشى أن تكون هذه آخر مرة أدنى
الجرة إلى ثغورك فأبلى بالماء شفاهكم . ومنذ اليوم ، اذا اشتد
بكم الحر فلتم إلى الظل تطلبون الراحة ، وتطفثون الغلة إلى
جانب عين جارية . فهنا لك فلتذكرونى ، ولتذكروا ما قت
به من خدمة كان يعيشها حبي لكم ، لا مجرد القرابة التى تجمعنا .
أما ما أسديتم إلى من جميل فاني ذاكرته مدى الحياة . لعمرى
إني لأحزن لفراقكم . ولكننا أصبحنا بحال أنا فيها أدنى أن
أكون عبثا عليكم من أن أكون عوناً لكم . وإذا حيل بيننا وبين
أوطاننا فليس لنا بد - قريبا أو بعيدا . من أن نتفرق فى بلاد
الغربة .

« انظروا ! هذا هو الشاب الذى ندين له بهذه الهدايا : بهذا
الكساء للطفل الرضيع ، وتلك الاطعمة الشهية . لقد أقبل
الساعة يسألنى أن أذهب الى داره ، لكى أقوم بخدمة والديه

صاحبى الغنى والجاه . فلم أرد هذا الطلب . لأن واجب الفتاة يقضى عليها بأن تخدم ؛ وانها ليشق عليها أن تجلس فى البيت مستريحة ، تاركة لغيرها أن تقوم بخدمتها . لهذا سأمضى منشروحة الصدر مع هذا الشاب ، وقد ألفيته عاقلا ذكيا ؛ وكذا سيكون الوالدان من غير شك . كما يليق بقوم ذوى يسار .

« فيا صديقتى العزيزة أستودعك الله : ولتقر عينك برضيعك الذى ينظر إليك الآن نظرات ملؤها الصحة والحياة . فاذا ما ضممته إلى صدرك وهو فى هذه اللقائف المتعددة الألوان . فاذا كرى الشاب الذى أهدها إلينا . والذى سأنال منه أنا أيضا فى المستقبل ما به اكتسى واغتدى . وأنت أيها الرجل الجليل (مخاطبة القاضى) لك منى جزيل الحمد على أن كنت لى أبا ونصيرا فى مواقف عديدة . »

ثم ركمت جائية بجانب الأم الراقدة . وقبلت وجها بللته العبرات . وأنصت إليها ، وهى تمطرها صالح الدعوات بصوت هادىء خافت .

وفى هذه اللحظات كان القاضى الفاضل يقول لهرمن .
« إنك أيها الصديق لجدير بأن تعد من أعقل أصحاب المنازل .

الذين يعرفون كيف يختارون لادارة دورهم أكثر الناس
دراية وكفاية . وعهدى بالناس اذا أرادوا اقتناء الخيل أو
البقر أو الغنم . سواء بالمبادلة أو بالشراء ، ان ينعموا النظر .
ويحققوا .. ويدققوا . أما الانسان الذى يستطيع أن يصلح
كل شيء فى الدار ويحفظه . ان كان صالحا ، وأن يفسد كل شيء
ويخرب كل شئ بالخرق والطيش . فانه يؤتى به إلى الدار
بمحض الحظ والمصادفة . فلا يلبث أصحاب الدار أن يندموا
على تسرعهم حين لا يجدى الندم . أما أنت فيدولى أنك قد
فهمت هذا الأمر جد الفهم . وقد لعمري عرفت كيف تختار
لخدمتك وخدمة أبويك فاه قل نظيرها .. فا قدرها حق
قدرها ، وما دامت هى القائمة على بيتكم . فلن تشعر بفقد
الأخت . ولن يحس أبواك فقد ابنتهما .»

وفى تلك اللحظة أقبل كثير من أقارب النفساء يحملون
الهدايا . ويسوقون إليها البشرى بأن ستنقل الى مسكن خير
من الذى هى فيه . وقد سمعن جميعا ما قر عليه رأى الفتاة .
فنظرن إلى هرمن نظرات ذات معان ، تنبئ عما يدور
بخطارهن من أفكار يحاولن إخفاءها . وقد مالت واحدة منهن

الى صاحبها وهمست فى أذنها قائلة : « ولئن انقلب المولى
عروسا فقد سعد جدها . »

عند ذلك قبض هرمن على يدها وقال لها : « هلم بنا ! إن
النهار يوشك أن ينقضى . والبلدة بعيدة . » فجعلت درويته
تعانق النساء ، وهى تودعهن . فجذبها هرمن وهى تحيى الجميع
أحسن تحية . وأمسك الأطفال بثوبها وهم يكون وينتجون
ولا يريدون أن يدعوا أمهم الثانية تغادرهم . فجعلت كل من
النساء تأمرهم بأن يخلدوا الى السكون ، قائلة : « لم هذا البكاء ؟
وهى انما تذهب إلى المدينة لتأتىكم بتلك الحلوى الكثيرة .
التى أوصى بها أخوكم الرضيع . حينما حمله اللقلق الصغير إلى
هنا (١) مارا بـ دكان الحلوانى . وسترونها بعد قليل . وقد
عادت اليكم بالقراطيس الذهبية الجميلة . »

هنا لك أطلق الأطفال سراحا . فانطلق بها هرمن . ولأيا
ما استطاع أن ينجو بها من كل هذا العناق . ثم من الاشارات
بالمناديل بعد أن ابتعدا .

(١) فى بعض بلاد أوروبا اذا ولد طفل ، وجعل الاطفال الصغار يسألون من أين
جاء هذا الصغير : فيجيبهم الكبار بأن قد جأه طير اللقلق أو شئ آخر . والمبارة قد
تختلف قليلا من بلد إلى بلد

النشيد الثامن

MEL POMENE ملبوميني

(الهة الماسي)

هرمن ودروتيه

انطلق الاثنان ، وأمامهما ذكاء قدمالت للغروب ، مستترة
خلف غشاء كثيف من السحاب المنذر بالرعد وبالأمطار .
والشمس من وراء ذلك القناع تبعث بنظرات ملتبهة ، طورا هنا
وطوار هنالك ، فتسكب على الفضاء أشعة سحرية مبهمة ، قد
كمن فيها نذير الشر .

قال هرمن : « عسى ألا يرسل إلينا هذا السحاب المكفر
برداً أو ابلا منهمرا ، فيفسد غلة هذا العام على حسنهما . »
وقد سر الاثنان لمنظر القمح ، وقد تمايلت سنابله على
سوقه . ويوشك أن يبلغ في الطول قامة الصديقين اللذين

يسيران وسطه الآن .

وقالت الفتاة لصاحبها : « أيها الرجل الصالح ، الذي امسيت له مدينة بهذا المصير الحسن ، وبهذه الدار التي ستؤويني وتظلني . سينا يبيت كثير من الطريدين في العراء ، عرضة للعواصف والأمطار . حدثني الآن ، وقبل كل شيء ، عن أبويك اللذين سأقوم بخدمتهما ، واللذين أميل اليهما بكل قلبي . فأطلعني على جلية أمرها ، لأن من عرف مولاه سهل عليه ارضاءؤه . بأن يكون حريصا على كل شيء يراه هو في المرتبة الأولى ، وقد وقر في نفسه أنه أكثر خطرا من كل شيء سواه . لهذا سألتك أن تخبرني كيف أستطيع ارضاء الوالد والوالدة . »

فأجابها الفتى : « إنك أصبت كل الإصابة إذ تسألين عن خلق الوالدين وعن طباعهما . فقد قضيت عمري وأنا أحاول عبثا خدمة أبي وارضاءه بأن أقوم بإدارة العقار كله ، كما تما أديره لنفسى ، وأتعهد الحقول والكروم صباحا ومساء . أما والدتي فمن السهل أن أكسب رضاها ، لأنها تقدر الجهود حق قدرها .

وأنت أيضا ستصبحين لديها خير الفتيات وأفضلهن . اذا

عنيت بأمر المنزل كأنه منزلك . أما والدى فليس من هذا الطراز ، لأنه يحب المظاهر البراقة الخلابه . ولا تهميني أيتها الفتاة الطيبة بالبرود أو بالقسوة ، أن كشفت لك عن أمره ، وأنت بعد غريبة عنا . وإنى أقسم لك أن هذه أول مرة انطق فيها بمثل هذا القول . وما أنا بمن يحبون كثرة القيل والقال . لكن مرآك يبعث الثقة فى النفس ، ويجعلنى مطمئناً لأن أحدث اليك فى مثل هذه الأمور . فوالدى يتطلب فى الحياة شيئاً من المداهنة . ويود أن يبالغ الناس فى اظهار الحب له والاحلال والاكرام . ولقد يسر أحياناً من خادم خائن يعرف كيف يستغل طبعه هذا . وبالعكس قد لايسره المخلص الأمين . ، فقالت الفتاة وهى تسرع الخطى . وقد أخذ الليل يرخى سدوله : « لكى أرجو أن اكتسب رضى الاثنين . فطبع الام موافق طبعى تماماً . وعدا هذا فانى قد ألفت منذ الصبى أن لأطف وأجامل . فان جيراننا الفرنسيين فى الزمن الغابر (١) كانوا يجعلون للادب واللياقة أهمية كبرى . فكان التمسك بالآداب فرضاً على الأشراف النبلاء وعلى الطبقات الوسطى

(١) أى قبل أن تبدل الثورة من طباعهم

من أهل المدن ، والفلاحين العاملين على حد سواء . فكان الكل يفرضها فرضا على أهله وعشيرته . وقد سرت إلينا ، نحن جيرانهم من الألمان ، تلك العادات ، قرى الاطفال عندنا فى الصباح يقرئون الآباء السلام . مكبين على أيديهم يقبلونها مظهرين نحوهم كل إجلال وإعظام . وهكذا أبهم طول النهار . فهذه كلها أمور ألفتها ودرجت عليها منذ الحداثة حتى باتت لى طبعاً وخلقاً ، وسأبديها كلها تلقاء الشيخ الوالد .

ولكن من مخبرى الآن كيف ألقاك أنت وكيف أعاملك : أنت الابن الوحيد الذى سيكون لى فى المستقبل سيداً آمراً ؟ ، وعند ما نطقت الفتاة بهذه العبارة ، كانت قد وصلت ورقيقها الى شجرة الكمثرى . وقد أشرق البدر التمام . وجعل يرسل ضياه من السماء ، واختفت الشمس تحت الأفق فلم يبق منها شعاع ولا ضياء : فكان أمامها أنوار مضيئة كأنها النار الساطع ، وظلال معتمة كظلام الليل البهيم .

وقد أنصت هرمن إلى ذلك السؤال ، وهو واقف معها تحت ظل الدوحة الباسقة ، فى أحب بقاع الأرض الى نفسه ، حيث كان يندى الدمع فى ذلك اليوم بعينه ، من أجل هذه

الطريدة الواقعة بجانبه .

جلست الفتاة في ظل الدوحة لتستريح قليلا ، فأجابها
الفتى العاشق على سؤالها ، وهو قابض يده على يدها : « دعي
قلبك يوح إليك بما تفعلين ، ثم أجيبي وحيه ، ولبي نداءه
في كل شيء . »

ولم يجرؤ أن يزيد على هذا حرفا ، وكان الوقت مؤاتيا ،
والفرصة سانحة ، ولكن خشي أن يتعجل كلمة النفي . وآله
حين قبض على يدها أن أحس ذلك الخاتم على أصبعها . ولهذا
جلس الى جانبها لا يحرك ساكنا ، ولا ينطق بكلمة .

لكن الفتاة قطعت جبل الصمت وقالت : « ما أبدع ضياء
البدر وما أعذبه ! إنه ليحاكي ضوء النهار ، حتى لا بُصر من هنا ،
في جلاء ووضوح ، ديار المدينة وقصورها ، وأرى هناك غرفة
تحت نافذة ، ولقد استطيع أن أحصى ما بها من قطع الزجاج . »
فقال الفتى وهو يكم عواطفه : « ان هذا الذي تريته هو
منزلنا ، حيث أذهب بك الآن . وتلك الغرفة الملاصقة
للسقف هي غرقتي ، وقد تغدو غرفتك قريبا ، لأننا كثيرا
ما نغير من نظام المنزل . وهذه هي مزارعنا ، وقد فضجت

ثمّارها وحان وقت الحصاد . وفي ظل هذه الشجرة نبجل وقت الظهيرة لتناول غداءنا .

والآن هلم بنا نمش وسط الكرم ، ثم نجتاز الحديقة إلى الدار . فاني أرى السحاب المطير يوشك أن يغشانا ويغشى البدر التمام ، وهذي بروقه أخذت تلعب . ،

ثم نهضا من تحت الشجرة ، وجعلنا ينحدران وسط المزرعة ، ما بين قمح قد علا ونما وسرهما ما يحيط بهما من ضياء لامع منتشر . ولم يلبثا أن وصلا إلى الكروم ، وتحت عرُشها ظلام حالك ، فجعل الفتى يقودها ، وهو ينزل بها تلك الدركات الحجرية الخشنة ، الممتدة وسط العريشة . فأخذت الفتاة تنزل في ريث وأناة ، مسندة يديها إلى كتفيه . وكان القمر يطل عليها من خلال الكرم بأشعة ضعيفة تهتز وتضطرب . ثم لم يلبث أن غشيت السحب وخلفها في ظلام قائم . فجعل هرمن يمشى بتؤدة ، والفتاة مستندة إليه ، على قوتها . وهي تمشي خلفه بدركة واحدة . ولكنها لجلها الطريق ، ~~ولم~~ بالدرج من خشونة وسوء انتظام ، تعثرت في مسيرها ، وزلت بها رجلها ، وكأما التوت قدما ، فسمع لها صوت .

ومالت الفتاة لتهوى ، لولا أن أدار الشاب وجهه مسرعا .
وبسط ذراعيه وأمسك بهما جسمها المحبوب . فسقطت متساندة
على كتفيه ، وقد ألصق في تلك اللحظة صدرها بصدرة ،
ولامس خدها خده ، ووقف هوسا كناكا أنه تمثال من المرمر .
وليس في قلبه ذرة من العبث . فلم يضمها الى صدره إلا بمقدار
ما يمنعها من السقوط . ومع ذلك فقد كانت عبثا جميلا ،
وكان يحس حرارة صدرها وقد لامس صدره ؛ وعبير أنفاسها
الشافية يهب على شفثيه . لكنه كان محتملا لجثمانها ، وليس في
صدره غير شعور الرجل القوى العزيمة .

أما هي فسرعان ما أخفت ما بها من ضر ، وقالت وهي
تضحك : « في عرف الناس ذوى العقل والبصيرة ، اذا التوت
الرجل عند عتبة البيت فان هذا ينذر بشر مستطير . وكان
أولى بك أن تجدى فألا خيرا من هذا الفأل . والآن فلنتمهل
قليلا ، كي لا يلومك أبواك على أن أحضرت اليهم خادما
عرجاء . فنبذو أمامهم ربّ دار كثير الاهمال . »

....

النشيد التاسع

أورانيا URANIA

(الهة الفلك)

مستقبل !

أى آلهات الفنون (١) ! يا من يسرهن أن يُحسِنَ إلى
العاشقين المغرمين ! لقد أخذتن بيدهما الفتى الصالح، وسلكتن
به اسلم الطرق ، حتى لقد ضممتن صدره الى صدر حبيبته ،
من قبل أن تعقد بينهما خطبة ، ألا فلتساعدن الآن على توثيق
تلك الرابطة التى ستجمع بينهما ، ومزقن تلك السجب التى تعكر
صفاء سعادتهما . واقصصن علينا ، قبل كل شئ ، ما يجرى الآن بالدار .

(١) الاستجداد بالموزات (Musen) شئ مألوف فى الشعر الخامس . ولكن
جوته لم يلجأ إليه إلا فى هذا الموضع . بعد أن كاد يفرغ من كتابة قصته فى أسلوب
سهل خال من كل تكلف

عادت الام للمرة الثالثة الى حجرة الرجال ، وقد بلغ منها
القلق مبلغه ، وكانت قد غادرتها منذ لحظة ، حينما طغى السحاب
على القمر ، واحست بدنو العاصفة . وساورها الخوف على
ابنها ، لتخلفه إلى تلك الساعة وسط الليل البهيم وأخطاره .
فجعلت توجه إلى الصديقين قارس اللوم ، إذ رجعا دون
أن يتحدثا إلى الفتاة ، أو يقولوا كلمة من أجله . بل تركا القى
وشأنه ، وعادا مسرعين .

فقال لها الوالد : « لا تجعلى الشر أسوأ مما هو ! فنحن
مثلك قد أضجرنا الانتظار ونريد أن نستقر على حال . »
وأخذ الصيدلى يتكلم بهدوئه المعهود دون أن يتحرك من
مكانه ، فقال : « حينما تمر بي ساعة كالتى نحن فيها الآن ، يستحوذ
فيها على الناس القلق ، وينضب معين الصبر ، عند ذلك
أبادر بشكر والدى المرحوم ، الذى استأصل من نفسى جذور
القلق والضجر ، حين كنت فى الدار صينا ؛ فلم يبق منها فى
صدرى أثر ، وأمست حلما صورا ، كأكبر العقلاء
وأحزمهم . »

فقال له القسيس : « وأى آلة استخدمها أبوك الشيخ
للوصول الى هذا الغرض ؟ » فأجاب الآخر : « يسرنى أن
أقصر عليكم ذلك القصص . وفي وسع كل منكم أن يستفيد
منه أجل الفوائد . كنت مرة - وأنا بعد صبي - أنتظر بفارغ
الصبر قدوم المركبة التى ستقلنا فى يوم الأحد إلى البئر تحت
أشجار الزيزفون . لكن المركبة لم تـجـىء . فجعلت أجري
كالوزغة من مكان إلى مكان ، صاعدا نازلا ؛ طورا أنظر من
الباب ، وطورا أطل من النافذة . وأحسست حكة فى يدي ،
فجعلت أـحـدث فى المائدة خدوشا ، واضرب الأرض برجلي ،
بل كدت أبكى بكاء . . . رأى الوالد كل هذا وهو فى
سكونه المألوف ، ولكنه لما آنس أن الهياج قد بلغ منى درجة
الجنون ، أخذ بذراعى فى هدوء : ومشى إلى النافذة ، وألقى
على سمعى هذه العبارة الحكيمة : « أنظر الى هناك ! ترى ذلك
النجار قد أغلق دكانه اليوم ! لكنه سيفتحه غدا ؛ وعند ذلك
يتحرك المنشار وتحرك (الفأرة) ولا يزال يحد ويعمل من
الصباح الى الماء . . . لكن تذكر ولا تنس أنه سيأتى يوم
يشغل فيه ذلك النجار هو وجميع مساعديه ، كى يصنعوا لك

نعشا، يهيوّنه ويتمونه بسرعة. ثم يادرون بنقل هذا المنزل الخشبي إلى هنا . وهذا المنزل هو المصير الذى يؤول اليه الناس جميعا سواء منهم من كان صابرا ، أو من كان ضجرا ، وبعد ذلك يوضع المرء تحت سقف ثقيل .

« كل هذا رأيت ماثلا فى خاطرى : فكأ تمارأت الألواح تمد ، واللون الأسود يعد ، لكى تصبغ به الألواح . عند ذلك زائلى الضجر ، وجلست أنتظر المركبة فى صبر وسكون . ومنذ تلك اللحظة ، اذا أبصرت الناس فى هرج ومرج من جراء أمر أقلقهم انتظاره . عند ذلك يخطر النعش يبالى فألزم الهدوء . » فتبسم القسيس ضاحكا وقال : « ان منظر الموت ، وإن أثر فى النفس ، لا يزعج الرجل العاقل ولا يرى فيه المؤمن أنه الغاية التى ليس وراءها شيء . فأما الأول فان منظر الموت يثير فى نفسه روح الجد والعمل ، وأما المؤمن فانه يقويه فى ساعة المحنة بما يبعثه فى نفسه من الأمل فى السعادة المقبلة (١)

(١) أى أن الناس أمام الموت إما رجل « يهتدى بفكره أو رجل يهديه إيمانه ودينه . وليس معنى هذا أن المتدين لا يفكر أو أن المفكر لادين له . وإلا لما جاز القسيس أن يفوه بهذا الكلام . وكل ما هناك أن الانسان اذا استرشد بفكره أو بإيمانه فليس فى الموت ما يدعو إلى الجزع .

فيصبح الموت في نظر كل منهما هو الحياة بعينها . . . وقد كان خطأً من الوالد أن صور لابنه — وهو بعد ذو شعور حساس — الموت ، في شكله الرهيب ، وإنما يجب علينا أن نرى الشباب ما في الشيخوخة من نضوج وجلال ، ونرى الشيوخ منظر الشباب ، لكي ينجذ الاثنان لذتهما في مراقبة تلك الدورة الأبدية ، وكلها حياة في حياة . .

✽

في تلك اللحظة فتح الباب ، وظهر الفتى والفتاة ، في روعة وفي جلال ، فدهش الصديقان ، ودهش الأبوان اذ أبصرا العروس ، وقوامها يكاد يدنو من قوام الفتى ، حتى لقد خيل اليهما أن الباب أصغر من أن يسع هذين القوامين السمرين . خطا الاثنان معا فوق العتبة ، وبأدب هرمن بتقدمها لوالديه بألفاظ عَجَلَة سريعة . فقال : « هذه فتاة تتمنيان أن يكون لديكما مثلها . فأكرم وفادتها أيها الوالد العزيز ، وأنت يا أماه ! سلبها عن شئون المنزل جميعا ، لكي تدركي أنها أجدد الناس بأن تقر بها إليك ، وتدينها منك . »

والتفت هرمن الى القسيس ، وانتحى به ناحية ، وقال له

همساً : « أيها السيد الجليل ! أعنى بالله على الخروج مما أنا به من مأزق . وساعدنى على حل عقدة ، أخشى أن تسوء حالها ، إن لم تتداركها بسرعة . فأنى لم أطلب إلى الفتاة أن تكون لى خطبة . » وهى تظن أنها تنزل البيت خادماً ، لا عروساً . وأخشى أن تفر هاربة منا لمجرد ذكر الزواج . فلنمض فى سبيلنا بسرعة ؛ ويجب ألا ندعها فى خطئها هذا طويلاً . وأنا كذلك لا أطيق البقاء فى ظلام الشك : طويلاً . فأسرع بربك ، وأظهر الآن ما نعهده فىك من عقل وحكمة . عند ذلك التفت القسيس الى الجماعة يريد مخاطبتهم ، ولكن كانت الفتاة ، وبالإأسف ، قد أخدمها الكدر مأخذة ، حين أنصتت لمقالة الوالد ، ولو انه تكلم بنية حسنة . وبفكاهته المألوفة . فقال : « نعم ما فعلت يا بنى ! ولقد سررنى ان يتشبه الولد فى حسن ذوقه بالوالد ، الذى كان لا يصطحب الى المراقص غير أجمل الفتيات . ثم اختار أخيراً أبهى النساء زوجاً له وهما هى الآن : الأم العزيزة المحبوبة . ولعمرى إن الرجل — عند اختياره لزوجته — ليعلم للناس عن حصافته وعن عقله ، وعما اذا كان يأنس فى نفسه فضلاً وجدارة . أما أتما

فلم تكونا بحاجة الى تفكير طويل ، قبل أن تقطع ابرأى . وأنت يا ابنتى ما كان لك أن ترددى طويلا فى قبول هرمن .
 وكان هرمن فى تلك اللحظة يخاطب القسيس ، فلم يسمع من كلام أيه الا نصفه ، ولم يكديغى ما تضمنه حتى جعلت جوارحه ترتعد ، وقلبه يخفق . وساد السكون فجأة . وصمت الجميع .
 أما الفتاة فقد جرحت عزة نفسها لكلام حسبه تهكما .
 وسخرتة منها . وبلغ الألم منها صميم القلب . وتساعد الدم الى وجهها . فغطى الخدين وصفحتى العنق . ولكنها مملكة نفسها ، وحاولت جهدها اخفاء ما تحسه من ألم . ثم قالت للشيخ :
 « لعمري ان ابنك لم يعدنى لمثل هذا اللقاء ، حينما وصف لى السيد الوالد ، بأنه كأحسن ما يكون عليه أهل المدن من كمال وفضل . . ومع علمى أننى الآن بين يدي رجل أوتى من العلم والأدب النصيب الأوفر ، ويعرف كيف يعامل كل انسان بما هو أهل له . فانى أظنك لا تحس عطفًا ولا رجمة نجو هذه البائسة المسكينة . التى دخلت دارك الساعة لى تسهر على خدمتك . ولو كنت تحس نحوى القليل من الرحمة ، لما خاطبتنى بكل هذا التهكم المر ، مهما كنت تحسبني دوزك

ودون ابنك منزلة وقدرا . لقد جئت اليوم ، وليس بيدي غير
حقيقية صغيرة ، إلى منزل فيه سائر الأمتعة ، وقد توافرت فيه
جميع وسائل الراحة والسعادة للذين يسكنونه . بيد أني أعرف
أنفسى منزلتها ، وأقدرها حق قدرها . فهل من النبل والكرم
أن أقابلَ ، بمجرد دخولي الدار . بهذا التهكم الذي يوشك
أن يلقى بي إلى خارجها ؟ »

استولى على هرمن الرعب ، فأشار إلى القسيس أن يتدخل .
ويبدد غيوم هذه الأغلاط . فبادر هذا الرجل العاقل ، وأقبل على
الجماعة . ورأى الفتاة الطريفة يتناهبها الكمدو الألم ، واغرورت
عينها بالدمع ، فلم يشأ أن يحل عقده الشك فوراً . بل حدثته
نفسه أن يلو أمر الفتاة أولاً ، ويستطلع دخائل نفسها ؛
فخاطبها بألفاظ يختبرها بها ، وقال : « حقا أنك لم تسرعة ، قليلة
التروى ، أيتها الفتاة الغريبة . إذ قبلت على عجل أن تكوني
حادما عند قوم تجهلهم وكأنك لم تفهمي أن هذا معناه أنك
ستكونين خاضعة لسلطان سادة أمرين ، ما دمت قد تعاقدت
معهم على القبول . وإن رضاك هذا ليحتم عليك الطاعة
والخضوع لأمر كثيرة . وليس أشق شيء في الخدمة تلك

الأعمال المنزلية المضنية . ولا العرق المتصبب من جراء المجهود
الجثماني الذي لا ينقطع . لأن ما يعاينه رب الدار من هذا
لا يقل عما يعاينه الخدم . كلا ؛ بل أشق ما في الخدمة أن
تجامل مولاك اذا ساء خلقه ، وأن تحملي ظلمه اذا ظلم ، وأن
تنصتي إلى أوامره المتضاربة المتناقضة ، اذا كان مترددا لا يعرف
لنفسه رأيا قاطعا ، وأن تقبلي من ربة المنزل ما قد تبديه من
عنف وشدة ، فهي سرعان ما يملكها الغضب . وأن تتحملي
رعونة الأطفال . وما قد يبدونه نحوك من قحة وغلظة .

« هذه كلها أمور تشق على النفس ، ولكن احتملها أمر
لا بد منه لتأدية الواجب المفروض على الوجه الأكمل ،
من غير ملل ولا تدمير . وأكبر ظني أنك لست على شيء من
المهارة في هذا . مع أنه ليس هنالك شيء أيسر من أن يمازح
المرء فتاة على إعجابها بأحد الفتيان . »

سكت القسيس ، لكن كلماته نفذت الى قلب الفتاة
الحساس . فلم تعد قادرة على ضبط نفسها ، وظهرت أشجانها
الكامنة . فجعل صدرها يعلو ويهبط ، والزفرات المحرقة
تتصاعد منه . وقالت ، وهي تسكب الدمع غزيرا : « ان الرجل

الذى يتحدث بعقل وبمنطق ، ويريد أن يعظنا فى وقت
المحنة ، قلما يدرك أن كلامه الفاتر الرزين لا يغنى شيئا فى
تخفيف ذلك الشقاء . وأتى لكم ، وأتم فى السعادة والنعم
تمرحون ، أن تحسوا ما قد يحدث المزح من ألم وعذاب ؟
أما المريض الذى شفه الضنى فانه يحس الأذى مهما كان
صغيرا أو تافها . ولن يجدينى الآن أن اتكلف الرضى
والسرور . بل ليظهر الآن ما لو كتمته فى صدرى لكان فيما بعد
سببا فى ازدياد همومى ، بل لقد يسلمنى الى كمد يقتلنى على مهل .
« فدعونى الآن أرجع أدراجى . فما كان لى أن أبقى فى
الدار لحظة . بل الأجل بى أن أنطلق الآن فالحق بأهلى وأقاربى
الذين خلفتهم وسط الشقاء ، لكى أسعى فى تحسين حالى
وحدى . أجل هذا هو رأي الذى لن أحمده . ولهذا أريد
أن أعترف لكم قبل انصرافى بأمر كان فى وسعى أن أبقيه
سرا مكتما طوال السنين .

« ان ما لقيته من الوالد من التهم قد أثر فى أبلغ التأثير ،
لا لأنى رقيقة الإحساس شديدة الكبرياء ؟ فليس هذا مما
يليق بالخدامات ، بل لأنى حقيقة قد استشعرت فى قلبى ميلا

نحو هذا الفتى ، الذى قابلى اليوم ، منجدا ومنقذا ، ثم غادرنى
فى الطريق ومضى ، فلم يزل بعدها ماثلا فى خاطرى. وجعلت
أفكر فى الفتاة السعيدة التى اختارها قلبه . وحينما قابلته لدى
البئر بعد ذلك فرحت فرحا شديدا ، كأنى قابلت أحد سكان
السماء . ولهذا تبعته مسرورة حين طلب إلى أن أكون خادما.
ولست أنكر أننى كنت أخدع نفسى أحيانا وأنا قادمة إلى هنا.
فأصور لها أن قد لا يكون مستحيلا أن أصبح يوماً به جديرة،
حين أصبح فى المنزل ذخرا وعونا لا يمكن الاستغناء عنه .
« لكنى الآن أدرك البون الشاسع الذى يفرق بين الفتاة
الفقيرة وبين الشاب ذى اليسار، مہارزقت من النشاط والفضل.
« كل هذا أقصه عليكم كي تذكروا حقيقة ذلك القلب الذى
جرحتہ كلمة قبلت مصادقة وعفوا ، وإنى لهذه المصادقة لشاكرة،
والا فما يكون مصيرى اذا أكنم آمالى وأحلامى فى صدرى،
وأنتظر حتى أراه يقتاد عروسه الى الدار بعد قليل ، وكيف
أقدر حينذاك على تحمل كل تلك الآلام فى الخفاء ؟
« أجل إنى لسعيدة إذ أنذرت منذ الساعة بالذى أتوقع ،
وسعيدة أيضا لأنى أفضت بما يكنه صدرى ، والدائم بعد بما يمكن

علاجه ، قبل أن يتأصل ويستفحل ، والآن حسبي الذى قلته :
وليس لى الآن ما أبقي هاهنا من أجله . يعلونى الخجل
والاضطراب بعد أن أدليت بمكنون سرى ؛ وبالأمال الكواذب
التي كانت تجول فى صدرى ، وسأذهب الساعة ، ولن يمنعنى
من الذهاب هذا الليل البهيم تغشاه السحب القائمة ، ولا الرعد
القاصف ، الذى يصم الأسماع هزيمة . ولا المطر الذى يتساقط
وابلا منهمرا ، ولا الرياح العاصفة وزئيرها الخفيف ، تلك أشياء
قد مارسناها من قبل . حينما اضطررنا إلى الفرار ، يتعقبنا الأعداء
عن كثب ، فهنا ذى ذاهبة الى هنالك ، ولقد الفت منذ نزلت
بنا هذه الكوارث ، أن مضى فى سبيلى وليس فى حوزتى شيء .
اذن استودعكم الله . لن أبقي هنا لحظة أخرى .

ولم تكذب تنطق بهذه الألفاظ ، حتى تراجعت الى الباب .
متأبطه الحزمة الصغيره التي جاءت بها . لكن الأم بادرت
خطوقت الفتاة بذراعيها ، وصاحت بها وهي مندهشة حائرة :
« ويحك ما معنى هذا كله ؟ وما هذه الدموع التي لا أفهم لها
كنها ؟ كيف أدعك تبرحين الدار وأنت مخطوبة ابني ؟ »
أما الوالد فنهض متندمراً ضجراً ، ونظر إلى الفتاة وهي

تنتحب ، وقال متأففا : « هذا جزأى إذن على أن أبديت
منتهى البشاشة والملاطفة ، أن تكون هذه المنغصات هى آخر
ما أختم به يومى . إن أبغض الاشياء إلى نفسى بكاء النساء هذا
وإعواهن ، الذى يزيد فى تعقيد مسائل كان من السهل حلها .
بقليل من العقل والروية . فعليكم أن تجدوا المخرج لأنفسكم
من هذا ، أما أنا فذهاب الى فراشى لاضطجع . » ثم تولى
عنهم ليذهب الى حجراته ، التى لم يزل سرير الزواج منصوبا
بها . وكان من عادته أن يأوى إليها ليسترىح .

لكن ابنه تعلق به ، وجعل يستعطفه قائلا : « لا تسرع
بالخروج أيها الوالد ! ولا يغضبك ما قالت الفتاة . فعلى وحدى
يقع إثم كل هذا الاضطراب ، وقد زاد الصديق الفاضل
الموقف حرجا ، على خلاف ما كنت أنتظر منه . فتكلم الآن
أيها السيد الجليل . فإليك أكل هذا الأمر كله . لا تزد مانحن
فيه من آلام ومخاوف . بل اكشف القناع عن كل شئ . »
وإلا فلن أستطيع فى المستقبل أن أجلك وأعزك . اذا كنت
الآن تسلك طريق المكر ، بدلا من أن تصرف الامور بما
عهدهنا فىك من عقل ومن حكمة . »

هنالك تبسم القسيس الجليل ضاحكا وقال : « لقد كان من العقل وقد كان من الحكمة أن استدرجت الفتاة ، حتى أدلت بذلك الاعتراف البديع ، وأظهرت من سرها ما كان خافيا . ألم يكن من نتيجة هذا أن استحالت همومك فرحاً وسرورا ؟ فالآن لم يبق إلا أن تدلى أنت لها بما عندك ، ولا حاجة بك لأن يعينك في هذا ثالث . »

فتقدم هرمس الى الفتاة وقال لها في لطف وفي رفق : « لا تندمى على ما أذريته من الدموع ، وما قد أحسست من ألم طارىء سرعان ما يزول . فقد كان في هذا إتمامٌ لسعادتي ؛ وأرجو أن يكون فيه إتمام سعادتك أيضا .

« إنني ما ذهبت الى الينبوع لكي أسأل الفتاة الغريسة أن تكون عندنا خادما . بل ذهبت الى هنالك لكي أنشد حبك . ولكني ، وأأسفاه ! لم تستطع عيناى اللتان أغمضهما الحياء ، أن تبصرا أين يميل بك الهوى . وأين يدفعك قلبك . فلم تر العنان منك إلا الصداقة والأدب ، حينما كنت تحمينني في مرآة ذلك الينبوع الصافي . ولقد كان في قبورك أن تصحبيني الى المنزل نصف سعادتي المنشودة ، والآن قد أكملت على النعمة ،

فبوركت وجيت ! ،

هنالك نظرت اليه الفتاة وقد بلغ التأثير منها صميم القلب .
فلم تمنعه حين تقدم اليها ليضمها ويلثمها . فقد كان في هذا
بلوغ ذروة السرور ، وضمان لسعادة العمر التي ليس وراءها سعادة .

وقد أفهم القسيس الآخرين حقيقة الموقف لكن الفتاة لم
يكفها هذا بل تقدمت الى الوالد ، في أدب وفي ظرف ، وأكبت
على يده فقبلتها رغم ممانعته ، وقالت له : « إنك بما طُبعت عليه
من عدل وانصاف ستعفو عن هذه الفتاة ، التي أذهلها ما سمعت
وما رأت ، فجعلت تبكي بكاء الألم ، ثم أخذت تذرف دموع
الفرح ، فاصفح عما رأيت منها في كلا الحالين ، واثذن لي بأن
أنعم بكل ما أنا فيه الآن من بهجة وسرور ، وليكن ذلك
الكدر الأول ، الذي كان اضطرابي بعض أسبابه : ليسكن
الأول والآخر ، وأما ما تعهدت الخادم المخلصة بأن تؤديه
من خدمة ورعاية ، فهذا كله ستؤديه الكنتة الآمنة . »

فعانقها الوالد متأثراً وهو يخفي دمه ، وتقدمت الأم
على مهل ، وقبلتها في عطف وحنان ، وأخذت يدها تصافحها
والدمع يتساقط من عيونهما دون أن يتحرك اللسان بكلمة .

هنالك تقدم القسيس الصالح ، دون أن يضيع لحظة .
فاتزع من يد الوالد خاتم الزواج — ولم يكن هذا بالشىء السهل .
لأن الاصبع السمينه جعلت اخراج الخاتم شيئاً عسيراً — . ثم
انتزع من إصبع الأم خاتمها . وعقد بالخاتمين خطبة الفتى
والفتاة ، وقال : « ليكن من حظ هذين الخاتمين الذهبيين ،
مرة أخرى . أن يعقدا رباطاً وثيقاً . يعادل الرباط الأول قوة
ومتانة ، إن هذا الفتى يحب هذه الفتاة حبا جما ، وهذه الفتاة
قد أقرت بأنها تميل إليه . فأنا أعلن خطبتيكما الآن . وأبارككما
مدى الدهر . بموافقة الوالدين وشهادة صديقنا . »

• وهنا انحنى الصيدلى ، وهو يدعو الدعوات الصالحة ، ولكن
لم يفته أن رأى عند ما ألبس رجل الدين الفتاة الخاتم ، أن فى
إصبعها خاتماً آخر فأدهشه أن رآه الآن كما رآه هرمن من
قبل لدى البئر ، فأثار همومه ، فقال الصيدلى مازحاً متودداً :
« هل هذه إذن هى الخطبة الثانية ؟ ومن يديرنا لعل العروس
الأول أن يحىء الى المذبح فيقيم الموانع دون الزواج ؟ »

فقال الفتاة : « دعونى أخصص لحظة لهذه الذكرى ، التى
يثيرها هذا الخاتم : ذكرى الفتى الطاهر ، الذى وهبى إياه ،

يوم ودعني وسافر، ولم يؤب بعدها إلى وطنه . وكأئما كان عالما بما سوف يقع ، حين قذف به إلى باريس حبه للحرية . وشغفه بأن يلعب دوره في هذا العالم المتقلب المتحول . فكان نصيبه هناك السجن والموت . وقيل سفره قال لي : « في رعاية الله ! اني منطلق الساعة ، لأنى أرى كل شيء في العالم قد تحرك مرة واحدة . وقد تقطعت بالناس الأسباب ، وان الشرائع الاساسية لأقوى الدول قد انقصمت عراها . وحيل بين المالك القديم وبين ما يملك . وبوعدما بين الصديق والصديق . واقترق المحب عن الحبيب ، وهأنذا اغادرك هاهنا ، حيث أرجو أن ألقاك يوما ما . ومن يدري ، فقد يكون هذا آخر حديث أتحدث به إليك . وما أصدق قولهم : إن الانسان في هذه الدنيا في دار غربة . . . ولم يكن هذا القول في يوم أصدق منه في يومنا هذا . فقد أصبحنا وليست الأرض ملكا لنا ؛ وكنوزها الغالية ذاهبة أدراج الرياح . والذهب والفضة قد فقدوا ما كان لهما من حرمة وتقديس ، واستحالوا الى صورة غير صورتها الأولى . وهكذا أصبح كل شيء في اضطراب وفي حركة ، كأئما يريد هذا العالم القائم أن يتحلل

ويتفكك — راجعا القهقري — وسط الفوضى والظلام
القائم ، لكي يلبس بعد ذلك ثوبا جديدا .

فأخلصى لى الحب : وان قُدر لنا أن نلتقى فوق أنقاض
هذا العالم ، فسنلتقى كشخصين جديدين ، قد كُوبنا تكويننا
جديدا ، وأصبحا حَرين طليقين ، لا يخضعان لصروف
الآقدار . ولعمري كيف يقبل التقيد بقيد من استطاع أن
يعيش فى هذا الزمن العصيب ثم يخرج منه حيا ؟ .

أما اذا شاء القدر ألا يكون لقاء سعيد بعد هذه المحن
والأخطار . وأن لن يتاح لنا أن نتعاقب فى سرور مرة أخرى ،
عند ذلك فاحفظى ذكراى . واجعلى صورتى الخافقة أمام
خاطرِكَ ، لعل فى هذا ما يبعث فى صدرك الهدوء والجلد ،
فلا يهملك بعدها أنزلت بك الكوارث أم غمرتكَ السعادة .
واذا استهواك منزل جديد ، وعلاقة جديدة ، فانعمى
شباكرة بما أعدته لك الآقدار ، وأخلصى الحب لمن يحبكَ ،
وقابلى الاجسان بالحمد والشكر . لكن حذار أن تسرفى فى
الحب ، خشية أن تحمل كارثة جديدة فيؤودك وقع المصاب
المزدوج .

بورك لك في أيامك . ولكن حذار أن تنظرى الى الحياة
 إلا كمتاع من الأمتعة . وليس كل متاع إلا خدعة وغرورا (١) .
 تلك كانت الوصية التي أوصانى بها الفقى ذو النبل . ولم يعد بعدها
 إلى . وفي هذه الفترة فقدت كل شىء . وذكرت ألف مرة مقال هذا
 وما أنذرنى به ، والآن أيضا أذكر عبارته ، إذ أرى الحب قد هيا
 إلى هنا سعادة جديدة . وأرى الأمل الجميل ما ثلا أمامى باسم الثغر .
 « أعف عني أيها الصديق الهمام ، إذا كنت أرتعد الساعة
 وأنا مفسكة بذراعك ، فان الملاح حين يضع رجله فوق أديم
 الثرى ، بعد الذى عاناه في أسفاره ، يحس بالأرض تحفوق
 وتهتز تحت رجليه ، مهما كانت ثابتة راسخة . »

هكذا تكلمت الفتاة ، ثم ضمت الخاتمين أحدهما إلى
 الآخر . فأخذ هرمن يتكلم بصوت فيه رقة النبل وشهامة
 الرجولة ، فقال : « أى دروتيه ! لئن كانت الكارثة شديدة
 فادحة ، فلتكن الرابطة التي تجمعنا اليوم أقوى وأشد . يجب
 أن تثبت وأن نصمد للحوادث ، وأن نحفظ بأنفسنا وبما ملكت

• (١) ليس مجرد صدقة أن يكون هنالك شبه بين هذه العبارة وبين الآية (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) فان جوته كان يعرف القرآن ويتمثل ببعض من آياته .

ايماننا . فان الرجل الذى يتزعزع ويضطرب فى هذه الأوقات
المزعزعة ، إنما يزيد الخطب هولا واستفحالا ، أما الذى
يثبت ويدأب ، فانه سرعان ما يلم شعث هذا العالم .

« وما ينبغي للأمانى أن يحاول نشر تلك الحركة الفظيعة
فى بلاده ، وأن يتردد من تجربة الى تجربة ، إن لنا مبادئنا وسننا
فلنذكرها للناس صراحة ولنعلنها لهم ، ان الشعوب التى تثبت
على مبادئها ، والتى تجاهد فى سبيل الله وفى الذود عن الشرائع ،
وفى حماية الآباء والنساء والبنين ، أولئك يمدحهم الناس جميعاً ،
وان كان نصيبهم فى الحرب الهزيمة .

« اليوم قد أصبحت لى يادروتيه ! واليوم أصبح كل شيء
أملكه أعز على مما كان قبلا ، فانى الآن لا أحافظ عليه أو أنعم
به فى حزن واهتمام . بل فى بسالة وقوة ، ولئن تهددنا العدو
المغير ، فى العاجل أو فى الآجل ، فلتكونى أنت أول من يقلدنى
سلاحى ويعمدنى للقتال ؛ ولعلنى أنك خير من يرعى الدار
ويرعى الوالدين الحبيبين ، فانى سأعرض صدرى آمناً مطمئناً
للاعداء . ومتى أصبح جميع الناس يرون رأى ، فهناك
تقف القوة أمام القوة ، وننعم كلنا بنعمة السلام . »

